# القسم الثالث

# مـوريتانيا

obeikandl.com

obeikandl.com

# الفصل الأول

## الجغرافية والتاريخ

### ١

**الجغرافية**[١]

تقع موريتانيا فى الشمال الغربى من إفريقيا جنوبى المغرب الأقصى والجزائر ، وفى أقصى شمالها الشرقى الصحراء الغربية ، ويحاذيها فى الغرب المحيط الأطلسى ، ويشغل الشرق منها دولة مالى ، وتحاذيها فى الجنوب دولة السنغال واسمها تحريف لكلمة صنهاجة التى نزلت بها قبائلها البربرية وامتدت إلى نهر النيجر وشواطئه وإلى إقليم مالى .

وهى تشغل الجزء الغربى من الصحراء الكبرى التى تمتد حزامًا بين بلاد السودان والبلاد المغربية ، وتتناثر على رقعتها مناطق جبلية أشبه بهضاب متسعة ، ونلتقى فيها من حين إلى حين بآبار وواحات صغيرة ، وقد نُمْضى مائة كيلومتر دون أن نعثر على بئر أو ماء ، مما يجعل القوافل المارة بها فى حاجة إلى دليل يقودها لاسيما على الطرق التجارية الذاهبة إلى السودان والآتية منه ، وسطحها رمال سائلة وكثبان متنقلة ، تنقلها الرياح والعواصف الشديدة من مكان إلى مكان ، وطُمرت – على مر العصور – كثير من القرى والبلدان ، والجو – وخاصة فى الصيف – شديد الحرارة ، ويعتدل فى المناطق الجبلية وعلى ساحل المحيط ، وتهب بها صيفا ريح السيروكو الحارَّة والمحملة بالرمال ، والأمطار بها قليلة قلة شديدة حتى لتنعدم فى بعض الأنحاء . وقد تصبح الصحراء جافة جدا وقاحلة جدا كالمنطقة الجنوبية الشرقية بين آبار أروان وآبار أزواد ، وهما فى رمال كالحة لا نبات فيها ولا زرع ولا ضرع ، وهما محطتان على الطريق التجارى إلى تمبكتو وبلاد السودان . وحينما توجد آبار تنشأ قرى وبلدان يكثر فيها النخيل والكلأ ، ويزرع تحت النخيل فى الخريف الشعير والدَّخْن والذرة وأحيانا القمح والبطيخ . وتنمو بموريتانيا أشجار صحراوية مثل السِّدْر والطَّلْح .

وفى أقصى الشمال الغربى لموريتانيا مدينة الساقية الحمراء التى أُسِّسَتْ سنة ١٨٨٤ للميلاد ،

(١) انظر فى جغرافية موريتانيا كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان فى مواضع متعددة ورحلة ابن بطوطة فى أواخرها حيث وصف رحلة له إلى السودان الغربى وكتاب الوسيط فى تراجم أدباء شنقيط للأستاذ أحمد بن الأمين الشنقيطى

وفى الوسط إلى الغرب إقليم آدرار ، وهو جبال شامخة متصلة أشبه بهضبة كبيرة يسير الراكب فيها ستة أيام طولا وخمسة أيام عرضا ومن أهم مدن هذا الإقليم شنقيط وكانت العاصمة الثقافية لموريتانيا حتى نهاية القرن الماضى ، ويقال إنها شُيِّدت بواحة آبير فى القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى ، وغلبت عليها الرمال فبنيت فى القرن الثامن الهجرى/الرابع عشر الميلادى . وكانت موريتانيا – من حينئذ – تسمى بلاد شنقيط ، ويسمى شعبها الشناقطة ، وسميت فى القرن الحاضر باسم « موريتانيا » وهو الاسم القديم الذى كان يطلقه الرومان عليها وعلى المغرب الأقصى . وتقع غربى شنقيط مدينة آطار التى بناها السماسدة فى القرن الماضى . وإلى الجنوب من شنقيط حصن أزكى ومدينة أودغشت اللذان اتخذهما المرابطون فى القرن الخامس الهجرى قاعدة لجيوشهما الناشرة للإسلام فى السنغال وغينيا ومالى . وفى الجنوب الشرقى من إقليم آدرار إقليم تكانت وهو مثله هضبة مرتفعة أو بعبارة أدق جبال متصلة عليها مدن وقرى أهمها مدينة تيججكة التى بنيت منذ ثلاثة قرون وهى كثيرة النخل والزروع ، ومن مدن الإقليم مدينة تيشيت فى منطقة رملية وعلى مقربة منها – كما يقول الحسن الوزان – رقعة صالحة للزراعةبها نخيل كثير ورقعة أخرى تزرع شعيرا ودَخنًا . والماشية نادرة والغنم الصحراوى كثير . ويشتغل أهلها بالتجارة وحمل عروضها أو بضائعها بين السودان والمغرب الأقصى ، وهى – إلى ذلك – كانت محطة مهمة للقوافل التجارية . وإلى الشمال الشرقى من شنقيط مدينة وادان وهى مبنية على مرتفعات صخرية وتشرف على واديين بهما نخل كثير ، وأهلها أصحاب سَبخة إجِّل فى الشرق المشهورة بمناجم الملح ومنها يُحْمَل إلى شنقيط وبلاد السودان . وحلَّت محل مدينة تغازَى التى كان يحمل الملح من مناجمها زمن ابن بطوطة فى القرن الثامن الهجرى ، ونزل بها فى رحلته إلى السودان وفيها يقول : « من عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح وسقوفها من جلود الجمال ، ولا شجر بها ، إنما هى رمل فيه معدن الملح يحفر عليه فى الأرض فيوجد منه ألواح ضخام متراكبة كأنها قد نُحتت ووُضعت تحت الأرض يحمل البعير منها لوحين ، ويباع الحمل منه فى ولاته بعشرة مثاقيل ذهبا وفى مالى بثلاثين مثقالا ، ويُقْطع قطعا يُتَبايع بها كما يتبايع بالذهب والفضة ، وقرية تغازَى يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر ، ويقول الحسن الوزان إنه ليس لعمالها من أقوات إلا ما يُجْلَبُ لهم من تمبكتو فى السودان أو الدرعة فى المغرب الأقصى الواقعتين على مسافة عشرين يوما من تغازَى ، وماء آبارها مالح . وفى الجنوب الغربى من موريتانيا مدينة بوتليميت ، وهى عاصمتها الثقافية الآن لوجود معهد إسلامى بها وتشتهر الأنحاء فى الجنوب الغربى بما فيها من مناجم الحديد وهى

تدرّ على البلاد خيرا كثيرا . ومن أهم مدن الجنوب الشرقى مدينة ولاّته ، وكانت محطة مهمة للقوافل التجارية ، وكان بها حدائق نخيل وتنبت بقعتها الدخن وحبا مدورا أبيض اللون كما يقول الحسن الوزان ، وتعانى المنطقة – كما يقول – من ندرة اللحم ، وكان أهلها يقومون على إرشاد القوافل العابرة للصحراء وحمايتها حتى السودان وحتى المغرب الأقصى مما كان يدرّ عليهم خيرا كثيرا .

## ٢

### التاريخ[١]

كانت قبائل صنهاجة الصحراوية تنزل من قديم فى الشطر الغربى من الصحراء الكبرى جنوبى الجزائر والمغرب الأقصى فاصلة بينهما وبين القبائل السودانية المدارية ، وكانت بعض هذه القبائل تنحدر حتى ضفاف نهر السنغال ، ونفس كلمة السنغال إنما هى تحريف لكلمة صنهاجة على لسان البرتغاليين حين نزلوا بسواحلها ، فسموها Senhagal ثم أصبحت Scnegal . ويقول ابن أبى زرع إن صنهاجة الصحراوية تنقسم إلى سبعين قبيلة ، منها لمتونة وكدالة ومسوفة ولمطة وبنو وارث ومنداسة ، وفى كل قبيلة بطون وعشائر أكثر من أن تحصى . وكثير منهم لا يعرفون حرثا ولا زرعا ولا ثمارا ، وإنما أموالهم الأنعام ، وعيشهم اللحم واللبن ، وهم على مذهب أهل السنة والجماعة ، ويجاهدون فى السودان .

وظلت تلك القبائل تعيش فى الحزام الصحراوى الفاصل بين البلاد المغربية والسودان على أنعامها وألبانها ولحومها وصوفها وأوبارها متخذة منها الخيام ، وكانوا يضعون اللثام على رءوسهم ووجوههم شعارا لهم ، ولذلك سموا الملثمين . وأخذت أضواء الإسلام تنفذ إليهم منذ عهد عقبة بن نافع الفهرى وولايته على الديار المغربية ( ٥٠ – ٥٥ هـ ) إذ أسلم على يديه منهم بنو وارث ، ومضوا يجاهدون السودانيين الغربيين واتسع اعتناق تلك القبائل للإسلام فى عهد موسى بن نصير ( ٨٦–٩٦هـ ) ولما استولى عبد الرحمن بن حبيب على مقاليد الحكم فى البلاد المغربية ( ١٢٧–١٣٧هـ ) عُنى بالطريق التجارى المار بقبائل صنهاجة

(١) انظر فى تاريخ موريتانيا المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب للبكرى وحديثه عن جارتها غانة وكتاب روض القرطاس لابن أبى زرع ( طبع الرباط ) ص ١٢٠ وتاريخ ابن خلدون ( طبع بولاق ) ١٨٢/٦ وحديث ابن حوقل عن السودان الغربى فى كتابه : « صورة الأرض » وراجع كتاب الحسن الوزان : « وصف إفريقيا » فى مواضع مختلفة ورحلة ابن بطوطة فى حديثه عن ولاته وكتاب مناهل الصفا للفشتالى ص ٥٨ وما بعدها . وكتاب الوسيط لابن الأمين الشنفيطى ، وإمبراطورية غانة الإسلامية وإمبراطورية مالى الإسلامية للدكتور إبراهيم طرخان .

غربى الصحراء الكبرى ، إذ حفر عليه من سجلماسة فى جنوبى المغرب الأقصى إلى بلاد السودان الغربى آبارًا للقوافل التجارية تنزل عندها وتأخذ كفايتها من الماء فى مسيرتها الصحراوية .

وأخذ الإسلام يتسرب سريعا إلى بلاد السودان الغربى عن طريق القبائل الصنهاجية فى موريتانيا والتجار المسلمين ، ويقول أبو عبد الله البكرى فى كتابه المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب إن بنى أمية أرسلوا جيشا لفتح بلاد السودان ، واستقرت ذرية منه فى بلاد غانة ، وكانت حينئذ تقع فى شرقى السنغال الحديثة وجنوبى مالى الحديثة أيضا ، وإذا صح ذلك فإن هذا الجيش حمل قديما إلى ديار السودان الغربى الدين الحنيف وبقى هناك من يدعو إليه ، ويتصل بذلك ما جاء فى صبح الأعشى من أن أهل غانة أسلموا فى أول الفتح . ونجد القبائل الصنهاجية – وخاصة لمتونة – تتجمع فى مدينة أُوْدَغَسْتْ جنوبى منطقة آدرار وتحدث فيها ما يشبه إمارة – ويسميها بعض جغرافيى العرب مملكة – ويذكر ابن أبى زرع من أمرائها أو شيوخها أو ملوكها – كما يقول – تيلوتان وكانت ولايته مسيرة ثلاثة أشهر فى مثلها كلها عامرة ، وكان يركب فى مائة ألف بعير ، وهو عدد ضخم من الإبل ، وكان فى زمن عبد الرحمن الداخل سلطان الأندلس ( ١٣٨ – ١٧٠ هـ ) وطال عمره إلى أن توفى سنة ٢٢٢ هـ/٨٣٦ م وكانت أيام حكمه خمسا وستين سنة ، ودان له – كما يقول ابن أبى زرع – أزيد من عشرين ملكا من ملوك السودان . ولم يكونوا ملوكا بالمعنى الحقيقى لكلمة ملوك ، إذ لم تكن لهم حكومات ولا دساتير دول ، إنما كانوا زعماء لأقوامهم ، وربما كانوا شيوخ – أو سادة – قبائل ، وأكبر الظن أن فى هذا العدد من الزعماء مبالغة . وخلفه حفيده الأثير بن فطر ، فقام بأمر صنهاجة الصحراوية أو الموريتانية خمسا وستين سنة إلى أن توفى سنة ٢٨٧ هـ/٩٠٠ م وولى بعده ابنه تميم إلى أن توفى سنة ٣٠٦ هـ/٩١٨ م . واضطربت شئون صنهاجة الموريتانية بعده فترة ثم اجتمعت على يروتان بن وَنسبو بن نزار اللمتونى الأودغستى فملك الصحراء بأسرها على عهد عبد الرحمن الناصر ( ٣٠٠ – ٣٥٠ هـ ) وابنه المستنصر ( ٣٥٠ – ٣٦٥ هـ ) وكان يركب – مثل تيلوتان فى مائة ألف بعير ، وكان حكمه مسيرة شهرين فى مثلها ودان له عشرون ملكا من ملوك السودان – مثل تيلوتان – يؤدون له الجزية ، وملك من بعده بنوه ثم افترقت كلمة الصنهاجيين ، وعظم أمر مملكة غانة واستولت على أودغست ، وكانت تموِّن بلاد السودان بالملح الوارد إليها من تغازَى ومن أجله استولت عليها غانة .

وتتجمع صنهاجة تحت لواء الشيخ أو الأمير أبى عبد الله محمد بن تيفاوت المعروف باسم تاوشتا اللمتونى وكان من أهل الدين والفضل والصلاح والجهاد والحج ، وظل أميرا على صنهاجة الموريتانية مدة ثلاث سنوات إلى أن استشهد فى إحدى غزواته . وولى أمر صنهاجة

الموريتانية بعد تاوشتا اللمتونى صهره يحيى بن إبراهيم الكدالى ، وخرج فى سنة ٤٢٧ هـ/١٠٣٥ م لأداء فريضة الحج والزيارة النبوية فى رؤساء من قومه ، وفى عودته اجتمع فى القيروان بأبى عمران الفاسى شيخ المذهب المالكى بها المتوفى سنة ٤٣٠ هـ/١٠٣٨ م وعرَّفه بما فى صنهاجة الصحراء الموريتانية من الجهل بشئون الدين الحنيف وتعاليمه ، وسأله أن يوجه معه أحد تلاميذه ليبصِّرهم بأمور دينهم ، وعرض الشيخ رغبته على تلاميذه ، فلم يستجب منهم أحد ، فكتب له رسالة إلى فقيه من تلاميذه بمدينة سجلماسة جنوبى المغرب الأقصى هو محمد وجاج أو وقاق بن زلو اللمطى . وطلب إليه فى رسالته أن يعرض الأمر على طلابه ، لعل واحدا منهم يقبل المسيرة مع يحيى الكدالى ، وقبلها فقيه تقى ورع من تلاميذه هو عبد الله بن ياسين الجزولى .

ورجع يحيى الكدالى إلى قومه الصنهاجيين بعبد الله بن ياسين فأخذ يحفّظهم القرآن الكريم ويقفهم على تعاليم الدين الحنيف ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، فالتفوا حوله ، وبعد فترة ازوروُّا عنه ، وتوفِّى حاميه يحيى الكدالى فأجمعوا على الانصراف عنه لما يأخذهم به من مشاق التكاليف الدينية . وأخذ يفكر فى تركهم والعودة إلى موطنه ، غير أن زعيما من لمتونة الصنهاجية الموريتانية هو يحيى بن عمر أشار عليه أن يعتزل معه للعبادة والنسك فى جزيرة على مقربة من مصب نهر السنغال ، ونزلاها معا ، ونزلها معهما سبعة من قبيلة كدالة الصنهاجية ، وبنى بها عبد الله بن ياسين رباطا للنسك ، وأخذ يلتحق به عشرات من أشراف صنهاجة ، كان يفقههم فى الدين ، حتى إذا بلغوا ألفا قال لهم : إن ألفا لن يُغْلبوا من قلة ، وقد تعيَّن علينا – أيها المرابطون – القيام بالحق والدعاء إليه ، وحمل الكافَّة عليه ، وبذلك سماهم : المرابطين ، وغلب هذا الاسم على صنهاجة الصحراوية الموريتانية بجانب الاسم القديم : الملثمين ، وخرجوا معه ، وجعل أمرهم فى الحرب إلى الأمير يحيى بن عمر اللمتونى ، وقَتل هو ويحيى من استعصى على الحق من قبائل صنهاجة الموريتانية ، ومضيا فى سنة ٤٤٢ هـ/١٠٥٠ م يدعوان إلى الإسلام فى سودانيى التكرور وحوض السنغال الأدنى وما وراءه من بلاد السودان الغربى فى غانة وغير غانة . وفى سنة ٤٤٧ هـ/١٠٥٥ م كاتبهما فقهاء سجلماسة ودرعة جنوبى المغرب الأقصى وصلحاؤهما كى ينقذا البلاد مما فيها من المنكرات ومن ظلم الولاة والحكام ، فاتجها بجيش جرار إليهم ، وتم لهما النصر ، وأزالا ما بالبلدتين من المنكرات وأسقطا ما كان بهما من المغارم والمكوس ، وجعلا عليهما عاملا أو واليا من لمتونة ، وعادا إلى صحراء موريتانيا وإلى جهاد الوثنيين فى بلاد السودان ، وتوفى الأمير يحيى بن عمر فى شهر المحرم سنة ٤٤٨ هـ/١٠٥٦ م وقدَّم الفقيه عبد الله بن ياسين أخاه أبا بكر بن عمر اللمتونى مكانه وقلده أمر الحرب .

وكان أبو بكر بن عمر بطلا مغوارا ، وكان صالحا متين الدين متورعا ، وسرعان ما تقدم بجيشه من آدرار وحصنى آزكى وأوْدَغَست فى شهر ربيع الثانى سنة ثمان وأربعين وأربعمائة إلى بلاد السوس جنوبى المغرب الأقصى ، وأخذ يستولى على بلدانها وقضى فيها على قوم من الروافض يقال لهم البجلية نسبة إلى عبد الله البجلى الرافضى ، وكان قدم إلى السوس حين قدم عبيد الله المهدى الشيعى الإسماعيلى إلى إفريقيا ، وأشاع به مذهبه الرافضى ، وأخذت أجيال متعاقبة تتوارثه هناك إلى أن قاتلهم أبو بكر بن عمر وعبد الله بن ياسين وقُتل منهم خلق كثير ، ورجع من بقى منهم إلى السنة ورأى الجماعة . وتلك أولى حسنات أبى بكر بن عمر والشيخ عبد الله بن ياسين فى المغرب الأقصى ، وأخذا يتغلغلان فيه شمالا واستوليا على أغمات وإقليم حاحة سنة ٤٤٩ هـ/١٠٥٧ م كما استوليا على تادلة وإقليم دكالة ، وعرفا أن بساحلها على المحيط وساحل إقليم تامسنة قبائل برغواطة التى خرج بها عن جادة الدين الحنيف متنبئون ابتدعوا لهم شريعة ضالة كافرة – وتعاقبوا فيهم من قديم ، فقصدا إليها فى مدينة آسفى على المحيط بإقليم دكالة وفى مدن سلا وآزمور وآنفة ( الدار البيضاء ) فى ساحل إقليم تامسنة ، وأخذا ينازلانها منازلات ضارية ، وفى بعض المنازلات والوقائع استشهد الشيخ العظيم عبد الله بن ياسين سنة ٤٥١ هـ/١٠٥٩ م ، وبُنى مسجد على قبره . ومضى أبو بكر بن عمر يجاهد برغواطة ، حتى استأصل شأفتها ومحا دعوتها من المغرب الأقصى إلى غير رجعة . وتلك حسنة كبرى ثانية لأبى بكر بن عمر وصنهاجة موريتانيا . وبلغه سنة ٤٥٣ هـ/١٠٦١ م أن خلافا شديدا نشب فى صحراء موريتانيا بين قبيلتى لمتونة ومسوفة ، وخشى افتراق الكلمة ، فخرج إليهما واستعمل على المغرب الأقصى ابن عمه يوسف بن تاشفين . ومنذ ذلك الحين انقسمت دولة المرابطين قسمين : قسما شماليا وقسما جنوبيا ، وقاد القسم الشمالى يوسف بن تاشفين ، وسرعان ما أسس فى سنة ٤٥٤ هـ/١٠٦٢ م عاصمة دولته : مراكش ، وفى سنة ٤٧٤ هـ/١٠٨١ م استولى على مدينة تلمسان الجزائرية من أيدى بنى يعلى الخزريين ، وتوغَّل شرقيها حتى مدينة الجزائر . واستصرخه بعض أمراء الطوائف فى الأندلس ، كى ينقذهم من براثن الإسبان الشماليين ، فجاز إليهم زقاق جبل طارق بجموع صنهاجة الصحراء الموريتانية ، وانتصر على الإسبان فى موقعة الزلاقة انتصارا حاسما سنة ٤٧٩ هـ/١٠٨٥ م ورأى من الضرورى القضاء على أمراء الطوائف حتى تعود إلى الأندلس وحدتها إزاء الأعداء المتربصين . وهذا الانتصار العظيم يعد حسنة كبرى ثالثة تضاف إلى صنهاجة الصحراء الموريتانية .

والقسم الجنوبى لدولة المرابطين ظل يقوده البطل المجاهد العظيم أبو بكر بن عمر الذى استطاع نشر الإسلام فى جميع أرجاء إفريقيا المدارية حتى أبواب إفريقيا الاستوائية وسياجها الضخم من الغابات الكثيفة ، وقد بدأ بالتكرور ومنطقة نهر السنغال الأدنى ، وانضموا إلى

جيشه فى حماس بالغ لنشر الإسلام فى ربوع السودان ، واستطاع الاستيلاء على غانة ونشر الإسلام فى أنحائها ، ويقال إن أميرها السوننكى أعلن إسلامه وأسلم معه كثيرون . وبالمثل نشر الإسلام فى أرجاء مالى وأرجاء صنغى فى حوض النيجر الأوسط ، وحقا كل تلك البلدان كان قد دخلها الإسلام على أيدى التجار والقبائل الصنهاجية قبل أبى بكر بن عمر ، ولكن كانت كثرة أهلها ما عدا التكرور وثنية ، أما أبو بكر بن عمر فإنه أحالها بلادا وشعوبا إسلامية إلى اليوم وإلى أبد الآبدين . وكل ذلك بفضل هذا البطل الصحراوى الموريتانى المخلص لدينه الذى كان يحكم كل هذه الأقطار من منطقة الأدرار فى موريتانيا متخذا آزكى وأودَغَست قاعدتين كبيرتين لحملاته الحربية جنوبا وشرقا . وكل ذلك يحسب له ولصنهاجة موريتانيا كما يحسب لها ما أدته من خدمات جُلَّى فى الأندلس وحمايتها للإسلام هناك ضد أعدائه من نصارى الإسبان . وطبيعى أن تسيطر صنهاجة موريتانيا فى أثناء ذلك على طرق التجارة الرئيسية بين المغرب الأقصى وإفريقيا المدارية . واستشهد البطل العظيم أبو بكر بن عمر سنة ٤٨٠ هـ/١٠٨٧ م برمية سهم مسموم فى عودة له إلى الأدرار من غزوة مظفرة بعد أن أدى للإسلام خدمات جُلَّى وسَّع بها داره الإفريقية وعالمه الضخم .

وأبو بكر – دون ريب – هو صاحب الفضل فى أن جعل كل الشعوب الإفريقية التى استولى عليها شعوبا إسلامية ، ودخلت إليها مع الإسلام اللغة العربية ، وظلت لغة العبادة والثقافة والتجارة إلى اليوم ، ولم يستطع الاستعمار إزاحتها عن مكانتها . وعادت هذه الشعوب إلى الاستقلال عن دولة المرابطين وصنهاجة موريتانيا بعد وفاة أبى بكر سنة ٤٨٠ هـ/١٠٨٧ م ، وازدهرت من بينها مملكة غانة وظلت صاحبة السيادة والنفوذ فى كل البلاد والأراضى الواقعة بين نهر النيجر والمحيط الأطلسى وتبعها الشطر الجنوبى من موريتانيا ومدينة أودغست ونيمة وولاته ، وانتسب حكامها – كما يقول الإدريسى – إلى الحسن بن على بن أبى طالب . وكانت قبيلة الصوصو تنزل جنوبيها وتخضع لها وتدفع إليها الجزية إذ كانت وثنية ، ومازالت تقوى حتى استطاعت القضاء على غانة والاستيلاء على عاصمتها كومبى صالح شمالى ياماكو عاصمة مالى الحديثة سنة ٦٠٠ هـ/١٢٠٣ م وفرّ من العاصمة فريق من المسلمين مع الشيخ إسماعيل إلى مدينة ولاته فى الجنوب الشرقى لموريتانيا وأصبحت من أهم المراكز التجارية فى إفريقية الغربية . وبعد نحو ثلاثين عاما استطاع مارى جاطة بطل دولة مالى القومى وأهم حكامها أن يغزو بلاد الصوصو ويقضى عليهم . وامتدت دولته حتى شملت حوض نهر السنغال ونهر غينيا ومعظم حوض النيجر الأوسط والأعلى ، وفى أوائل عهد أحد أحفاده وهو منسا سليمان ( ٧٥٣ هـ/١٣٥٢ م – ٧٦٠ هـ/١٣٥٩ م ) قام ابن بطوطة برحلته إلى السودان ، وكانت أول مدينة نزل بها فى موريتانيا مدينة تغازى ، ومر بنا حديثه عن مناجم الملح بها ، وعجب

من انخفاض ثمنه فى موطنه وارتفاعه فى بلاد السودان ، وكأنه لم يكن يعرف شدة حاجتهم إليه بسبب الحرارة القاسية فى ديارهم إذ يحفظ الماء فى الجسم فلا يتبخّر سريعا ، وقال إن من يحفرون عليه عبيد قبيلة مسوفة الصنهاجية . ونزل مدينة ولاتة ، ويذكر أن أكثر أهلها من قبيلة مسوفة ، وأنها كانت تتبع حينئذ سلطان مالى ، وأغلب الظن أن تبعيتها لمالى منذ عهد مارى جاطة ( ٦٢٨ هـ/١٢٣٠ م – ٦٥٢ هـ/١٢٥٥ م ) الذى وسّع حدود دولته – كما أسلفنا – إلى أقصى حد جنوبا وشرقا وغربا وكانت « ولاته » تابعة لغانة ومثلها مدينتا نيمة وأوْدَغَست ، فطبيعى أن تدين جميعا له ولمالى بعده وحكامها التالين . ويذكر ابن بطوطة عن ولاته أنها شديدة الحر وبها يسيرُ نخيلاتٍ يزرعون فى ظلالها البطيخ ، ولحم الضان بها كثير وثياب أهلها ثياب مصرية حسان ، ويقول إنهم مسلمون يحافظون على الصلوات ومثلهم نساؤهم ولهن جمال فائق ، ويذكر أنه أقام بها نحو خمسين يوما وأن أهلها أكرموه وفى مقدمتهم قاضيها وأخ له مدرس . ولا نعود نسمع عن ولاته فى عهد دولة مالى ، وكانت قد أخذت فى الضعف بينما أخذت صنغى فى حوض النيجر الأوسط شرقى السنغال وغمبيا تقوى ، ولم تلبث أن استقلت عن مالى ، ثم أخذت تزداد قوة تدريجا فى القرن التاسع الهجرى ، وبلغت غاية قوتها فى عهد أسرة إسكيا واستولى « سُنّ على » ملكها على تمبكتو وأشعل فيها النيران سنة ٨٧٣ هـ/١٤٦٨ م مما جعل فقهاءها وفى مقدمتهم عمر بن محمد أقيت يفرّون منها إلى ولاته واستولت هذه الأسرة على كثير من بلدان مالى ومدّت سلطانها ونفوذها إلى ولاته وإقليمها فى موريتانيا ، وكان حكامها بعد سن على متمسكين بالإسلام ، مما زاد فى تعلق الناس بهم ، وخاصة بمحمد بن أبى بكر ( ٨٩٩ هـ/١٤٩٣ م – ٩٣٥ هـ/١٥٢٨ م ) الذى اتخذ مدينة تومبكتو على النيجر عاصمة له ، واستكثر من بناء المساجد والزوايا ، واستقدم لها الفقهاء والعلماء لتعليم الناس القرآن والفقه وأمور دينهم ، وزار الحسن الوزان ولاته فى عهده وقال إنها تابعة لملك تومبكتو وتدفع له ضريبة محددة ، ومر بنا حديثه عنها فى جغرافية موريتانيا ، وقال إن كل تنظيم مدنى مجهول فى هذه المنطقة ، فلا قضاة ولا حكومة منظمة ، إذ كانت قبيلة مسوفة فيها لا تزال تعيش معيشة قبيلة .

ويبدو أن دولة صنغى لم تكتف بولاء ولاته وأنها حاولت الاستيلاء على تغازى وما بها من مناجم الملح ، بل يقال إنها استولت عليها فعلا مما أغضب أحمد المنصور الذهبى سلطان الدولة السعدية فى المغرب الأقصى ( ٩٨٦–١٠١٢هـ ) فصمم على منازلتها ، وأرسل إليها حملة سنة ٩٩٧هـ/١٥٧٩م فى عهد حاكمها إسكيا داود وتغلغلت الحملة فى بلاد السودان واضطر إسكيا داود أن يقبل التنازل عما بيده من بلاد موريتانيا والقبائل الصنهاجية ، وعادت الحملة بغنائم كثيرة وسمع بالحملة صاحب برنو شرقى صنغى وكأنما خشى على بلاده من الجيش السعدى ، فأرسل فى أواخر سنة ١٠٠٠ هـ/١٥٨٢ م بيعته للمنصور الذهبى مع هدية كبيرة

من فتيان العبيد والإماء ، وصمم المنصور على غزو صنغى واحتلال بلادها لما فيها من كنوز الذهب ومعادنه ، وأعدَّ لذلك جيشا جرارا بقيادة جوْذر الأندلسى ، والتقى الجيش بعد رحلة شاقة مضنية فى فيافى الصحراء وقفارها بجيش إسكيا إسحق بن داود واستطاع هزيمته فى موقعة فونديبى شمالى جاو ، ودخل المدينة فوجد أهلها غادروها واتجه جوْذر إلى تومبكتو العاصمة ، وأحس بخيبة أمل شديدة حين قيل له إن مناجم الذهب التى يقصدها لا تزال بعيدة جدا بُعْد المغرب الأقصى عن تمبكتو . وأرسل بذلك إلى المنصور فغضب وعزله عن قيادة الجيش وأرسل مكانه محمود زرجون ، ويقال إنهم استولوا من قصور إسكا إسحق بن داود على ما لا يحصى من الحلى والذهب وعاد الجيش محملا بغير قليل منهما ، مما أتاح للمنصور أن يبنى قصره « البديع » وينثر منه الكثير على الناس ، ولذلك سمى المنصور الذهبى .

وأهم ماعاد على موريتانيا من انتصار هذا الجيش المغربى الضخم أنه رفع يد دولة صنغى عن البلدان الموريتانية التى دانت لها ، وأكثر من ذلك أهمية أن المنصور رأى أن يرسل إلى بلاد موريتانيا والسودان رجالا كثيرين وخيلا من عرب المعقل وجشم أهل الشوكة والنجدة لحراسة ما استولى عليه جيشه من تلك الديار . ولبَّاه من عرب المعقل قبيلة حسان وغيرها ، ونزلت عشائر منها فى شنقيط ، وإليها ينسب إدْوعيش سكان تكانت وأبناء أحمد من دامان والترارزة فى الجنوب الغربى من موريتانيا ، وينسب إليها أيضا البرابيش سكان تيشيت وحكامها والأوداية ونزلوا بين وادان وولاته وكأن قبائل حسان تغلغلت فى كل بلدان موريتانيا ومناطقها ، وكان ذلك كسبًا كبيرًا لموريتانيا لأنهم عرب ، وأخذت تتعرب من حينئذ أى من أول القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى .

ومع أنهم استقروا فى مدن موريتانيا مع إخوانهم من القبائل الصنهاجية ، ولم يعودوا يسكنون فى خيام ، إنما يسكنون فى أكواخ ، ظلوا يعنون بتربية الإبل والخيل ، وظلوا يقودون حروبا مستمرة ، ويتسع أحمد بن الأمين الشنقيطى فى عرضها بكتابه الوسيط وتراجم أدباء شنقيط ، ونراه يقول عن حروب قبائل حسان إن الحرب أصل معهود بينهم فترى قبائلهم أو أقسامهم الكبيرة يحارب بعضها بعضا كما وقع بين إدوعيش سكان تكانت والترارزة سكان الجنوب الغربى إلى حدود السنغال ، وكما وقع بين إدوعيش وأبناء أحمد من دامان جيرانهم وكما وقع بين أحياء من عثمان سكان أدرار وإدوعيش ، وكما وقع بين الترارزة وأبناء عمومتهم البراكنة ، ويعرض لحروب الترارزة ، فيقول فى فاتحة عرضه : ما وقع بين الترارزة مع غيرهم لا يذكر ، بالنسبة لما وقع بين بعضهم وبعض ، وما يزال ابن الأمين الشنقيطى يعرض علينا حروب الموريتانيين وكيف أنها كانت تبدأ ضعيفة ، ثم تقوى وتستحكم بمرور الزمن . ولم تنج منها بلدة موريتانية ، ولا أفلت منها راغب فيها أوكاره ، وقد غلبت على حياتهم منذ القرن

الحادى عشر الهجرى ، بل فى رأينا منذ القرن العاشر ونزول قبائل حسان بينهم . ولعل ذلك ما حال فى موريتانيا بينها وبين قيام دولة فيها ، إذ لم تعمها وحدة بين قبائلها وسكان مدنها قبل القرن العشرين ، وكان لمدينة شنقيط فيها زعامة ولكنها لم تكن زعامة سياسية إنما كانت زعامة ثقافية . وظلت البلاد – منذ المنصور الذهبى – تستشعر شيئا من الولاء لدولة السعديين فى المغرب الأقصى ثم لدولة العلويين . ومازالت حياتها على النحو الذى قدمناه إلى أن داهمتها القوات الفرنسية سنة ١٩٠٣ للميلاد ووضعتها تحت الحماية ، وفى سنة ١٩٢٠ جعلتها مستعمرة فرنسية ، ومازال شعبها يجاهد الفرنسيين حتى أزاحهم عن دياره سنة ١٩٨٠ وأعلن قيام جمهورية موريتانية الإسلامية فى البلاد .

# الفصل الثانى

## المجتمع والثقافة

### ١

### المجتمع[١]

#### ( أ ) صنهاجة وقبائل المعقل العربية

كان المجتمع فى موريتانيا يتألف من قبائل صنهاجة وعبيدهم من السودان ، وكان هؤلاء العبيد يقومون لهم بكثير من الأعمال فى الزراعة وحفر الآبار وسقى المزروعات وكذلك فى المراعى ورعى الأنعام ، ويقول ابن بطوطة فى رحلته إلى السودان ونزوله بتغازَى بلدة مناجم الملح إن عبيد قبيلة مسوفة الصنهاجية هم الذين يقومون باستخراجه من الأرض وإعداده لحمله إلى بلاد السودان . ونزل موريتانيا فى أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر الهجرى كثيرون من قبائل المعقل الذين كانوا ينزلون بالقرب من مدينتى سجلماسة والدرعة فى المغرب الأقصى وخاصة قبائل حسان ، دفعهم المنصور الذهبى إلى الجنوب ليحموا فتوحه فى بلاد السودان واستقر كثيرون منهم فى موريتانيا مفضلين لها على بلاد السودان ، لأنها بسطحها الرملى الصحراوى تشبه البوادى التى كانوا يستوطنونها جنوبى المغرب الأقصى . وأخذ كثيرون منهم يؤثرون أرض المراعى يرعون فيها أنعامهم متنقلين فيها وراء الكلأ ، كما فى أرض تيرس الواسعة الواقعة غربى منطقة آدرار والممتدة جنوبا وغربا حتى المحيط الأطلسى ، وهى منطقة شديدة الخصوبة ، وهى قليلة المطر ، غير أنه قد يكثر فيها أحيانا بل ربما توالى ذلك فى سنوات متعاقبة ، ويسمونها سنوات الخصب ، وتسمن فيها أنعامهم وإبلهم ، حتى ليرفعون عن ضروعهم ما يشدونها به من نسيج الحبال ، خوفا عليها من أن تفسدها كثرة اللبن ولذلك يتركون الفُصْلان ترضع أمهاتها متى شاءت ودائما يتفقد الرعاة الضروع لحلبها ، وكثيرا ما يلقون باللبن على الأرض لعدم الحاجة إليه . ويكبر الفصيل سريعا حتى ليصبح صالحا للركوب فى سنة ولادته ، ويسبب هذا الخصب وغزارة المراعى فيه ربما ولدت الناقة لسنتين ونحوهما ، مما جعل الإبل فيها كثيرة ، حتى ليقولون إنها تنبت الإبل ، كما ينبت المطر النبات . وطبيعى

---

(١) انظر فى المجتمع الموريتانى كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان فى مواضع مختلفة وكذلك كتاب الوسيط فى تراجم أدباء شنقيط لأحمد بن الأمين الشنقيطى .

أن تكثر المراعى فى صحراء موريتانيا ، وكما نلقاها فى تبرس نلقاها فى منطقة تيشيت وفى الصحارى الممتدة بين وادان شرقى شنقيط وبين ولاته فى الجنوب الشرقى وأيضا فى منطقة الحوض غربيها .

### (ب) الزروع والمراعى

وأقام كثيرون من قبائل المعقل وخاصة قبائل حسان والبرابيش وأوداية فى مدن موريتانيا ، وكانت قديما تشتمل على مسجد أو مساجد تتألف من أكواخ تبنى حول آبار فى وديان أشبه بواحات صغيرة . وأهم ما يزرعون فيها النخل ليقتاتوا من تموره ، وعادة يزرعون تحته الشعير وقد يزرعون الدُّخن والقمح ، ويقول الحسن الوزان عن تشيست إنه يوجد قربها رقعة صغيرة صالحة للزراعة ، زرعها أهلها بالنخيل ، ورقعة أخرى يزرعونها شعيرا ودخنا يقيمون بها أودهم ، ويقول عن وادان إنه لا ينبت فيها سوى النخيل ، ويزاول أهلها الصيد للحيوانات الوحشية مثل الوعل والنعام ، وبها بعض الماعز ، ويقول عن ولاته إن أرضها تنبت الدُّخن والذرة . ويقول أحمد بن الأمين عن شنقيط إن بها نخلا كثيرا ، وببعض جبالها مزارع يزرع فيها القمح والشعير والدخن واللوبيا ، وأهل منطقة أدرار عامة يزرعون القمح والشعير تحت النخل ، ويزرعون فى الأودية والرمال نوعا يسمى فُنْدى وهو بطيخ أبيض اللون وأخضر من أجود البطيخ ، ويصنعون من بذر الأبيض دقيقا يخلطونه بدقيق الدخن ويجعلون منه شبه العصيدة ، ويقول الشنقيطى عن مدينة تيججكة إنها على ضفة واد كثير النخل وفى شماليها مزارع للفُنْدى والدخن ، ويقول عن تكانت إنها كثيرة الأشجار الصحراوية وبعدد أشجارها . وتلك هى صورة الزروع فى موريتانيا ، وليس منها شىء يصدَّر إنما هى لمعيشة أهلها وما يسد حاجتهم من الطعام . وأهل المدن والزروع بذلك أحسن حالا من أهل المراعى والأنعام ، إذ ليس من عادتهم أكل الخبز أو هم غالبا لا يعرفونه ، إنما يعرفون حليب نوقهم ، ويقول الشنقيطى ربما يبلغ أحد الرعاة ستين عاما ولم يعرف الخبز ولا العصيدة فضلا عن أكلهما ، إنما يشرب اللبن أو يأكل التمر أو بعض لحوم الأنعام التى يرعاها .

### (جـ) التجارة

من قديم أهم من الزروع والمراعى عند أهل موريتانيا التجارة مع أهل السودان . وأهم ما يتجرون به معهم الملح الذى كانوا يستخرجونه من مناجم تغازَى حتى القرن العاشر الهجرى ، وأخذوا – فيما بعد – يستخرجونه من آجُّل شرقى وادان ، ويكاد كل أهل موريتانيا يتجرون فيه لكثرة العائد منه ، ويتجر فيه أهل شنقيط ووادان وتيججكة وولاته والحوض وتكانت ، ويكاد يباع فى أعماق السودان بوزنه ذهبا . ومر بنا قول ابن بطوطة فى زمنه إن الحمل منه أى حمل البعير وهو – كما قال – لوحان بعشرة مثاقيل من الذهب فى تغازَى ، ووجده فى مالى

يباع بثلاثين مثقالا وقال إنه قد يباع فى مالى بأربعين مثقالا ، ومالى قريبة من تغازَى فما بالنا بما يباع به فى أراضى السودان البعيدة . وقال الشنقيطى إن كل ما عند أهل السودان من الخيل والثياب والزروع والعبيد كانوا يبيعونه – أو يبادلونه – بالملح . ومما يأتى به بائع الملح من هناك القماش المعروف بالأكحال وأردية يسمونها « ديماس وديسة » وبنائق والفولُ المعروف عند المصريين بفول السودان وعند أهل الشام بالفستق وعند أهل الحجاز باللوز الهندى . وهذه هى التجارة العامة فى موريتانيا وتليها التجارة فى الصمغ ، ويجنيه أهل القبلة من الأنحاء التى يكثر فيها القتاد أو الشوك وكذلك أهل الحوض . ولم يكن أهل موريتانيا يعرفون النقود فكانوا يتبادلون فى الكثير الأكثر القماش الذى يحتاجونه لملابسهم بالغنم ، وكان الثلاثون ذراعا من القماش تسمى باسم البيصة ، وهى الوحدة التى يرجعون إليها فى ثمن الأنعام والعبيد فيقولون مثلا هل تبيع هذا العبد أو ذلك البعير أو هذا الثور بعشر بيصات أو يقولون مثلا بكم أشترى بالبيصة من الغنم فيقال ثلاث أو أربع ونحو ذلك . وإذا كان البيع أو التبادل بين الأنعام بعضها وبعض فيقولون مثلا ثمن هذا البعير أربعة عجول من البقر أو ثمانية من الغنم .

وليس فى موريتانيا سوى صناعات أولية بسيطة ، وكان فيها حدادون بسطاء يصنعون الفئوس والخناجر وآلات الحراثة ، وكان بها دباغون يدبغون الفراء وجلود الأنعام ، وبعض النساء كن يَخِطن ما يصنع من الجلود ، وكان بينهم من يصنع أوانى الخشب ، وكل تلك صناعات يدوية أولية .

**( د ) حياة بدوية**

لم يكن فى موريتانيا حكومات منظمة ، فقد كانوا لا يزالون يعيشون معيشة بدوية فى المدن التى أقاموها وسكنوها . ومثل قبائل البدو كان هناك سادة وشيوخ لعشائرهم يطيعونهم ، وكانت القبيلة أو البلدة تتخذ لها قاضيا ترجع إليه فى قضاياها ، وكانوا لا يرجعون إليه إلا فى المسائل الكبرى أو القضايا الكبرى كما إذا حدث قتل فكانوا يلجئون إليه للقصاص ، وحتى فى هذه القضية الكبرى كان سادة القبائل أو كما يسميهم الشنقيطى أمراء القبائل لا ينفذون الحكم ، أو يطيلون التنفيذ ليأخذوا الرشوة ، ويقول : « ربما أوعز الأمير إلى القاضى ليحكم بما يهوى » . وفى أحوال كثيرة لم يكن هناك قاض فكان المتنازعان يحتكمان إلى شخص ليستمع حججهما ، وقد يطلب من المدعى الشهود ، وتشترط العدالة فى الشاهد ، وإذا حَكم رضخ المدعى لحكمه إلا إذا أفتاه أحد العلماء بالخطأ فى الحكم ، وربما ظلت القضية سنوات حتى يتفق رأى العلماء فيها .

وكان الزواج عِندهم – ولا يزال – على مذهب الإمام مالك لأنهم مالكية مثل بقية بلدان المغرب ، ومنهم من يأخذ الصداق كاملا ومنهم من يكتفى بنصفه ، ومنهم من لا يأخذه البتة ،

والجهاز بحسب العرف . وعلى ولىّ الزوجة أن يقيم قبل بناء الزوج بها وليمة ، وتُحْمَلُ منها موائد إلى أقارب الزوج ، وتبعث الزوجة بتلك الموائد فى كل عيد ، وتبعث نساؤهم بموائد مماثلة إلى الزوجة ، لتسود المودة والمحبة بينهم جميعا .

## ٢

### الثقافة[1]

### ( أ ) نشاط دينى تعليمى كبير

من المعروف أن الإسلام لم يدخل شعبا ولا بلدًا إلا دفعهما دفعا إلى العلم والتعلُّم ، وقد كانت أول آيات نزلت منه على الرسول ﷺ ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق ٭ خلق الإنسان من علق ٭ اقرأ وربك الأكرم الذى علَّم بالقلم ٭ علم الإنسان ما لم يعلم﴾ وآيات قرآنية أخرى كثيرة تحض على العلم كما تحض عليه أحاديث نبوية متعددة .

ومعنى ذلك أن الإسلام والعلم متلازمان ، وأن العلم لا ينفك عنه أبدا ، وكان المسلمون الأولون بمجرد أن يفتحوا بلدا يقيمون فيه مسجدا ، ويقيمون بجانب المسجد كتّابا لتحفيظ القرآن الكريم للناشئة ، حتى إذا حفظ الناشىء القرآن ورتّله أو جوّده تحوّل إلى حلقة أحد العلماء فى المساجد يأخذ عنه الفقه والحديث والعلوم الإسلامية كما يأخذ عنه العربية وقواعدها وآدابها من شعر ونثر . وكما يحدث ذلك فى المدن يحدث فى أحياء البدو وبصور مختلفة ، هيأت دائما كما هيأت صور التعليم فى المدن لظهور فقهاء يفقهون الدين الإسلامى وتعاليمه وما فرض من الصلاة والصيام والزكاة والحج وظهور نحاة ولغويين يحسنون العربية وقواعدها وتعليمها للناشئة .

وكل ذلك حدث فى موريتانيا مع انتشار الإسلام فى بلدانها وبين قبائلها البدوية منذ القرنين الثالث والرابع حين أصبحت هناك قبائل تعمل على نشر الدين الحنيف ، واتسع ذلك فى القرن الخامس الهجرى حين نزل الشيخ عبد الله بن ياسين فى قبائل لمتونة وأخواتها الصحراويات بموريتانيا : مسوفة وكدالة وجزولة ولمطة ، وسمّى أتباعه هناك المرابطين أى المجاهدين الذين رصدوا أنفسهم للجهاد فى سبيل الله وإعلاء كلمته ودينه ، ومضى مع يحيى بن عمر اللمتونى ثم مع أخيه أبى بكر يدعو أهل السودان الغربى – كما مرَّ بنا – إلى الإسلام ،

(١) انظر فى ثقافة موريتانيا وصف إفريقيا للحسن الوزان فى مواضع مختلفة من كتابه ، وراجع كتاب الوسيط فى تراجم أدباء شنقيط سواء فى التراجم أو فى حديثه عن التعليم والعلماء والطلبة ، وبالمثل راجع فصل مظاهر الثقافة العربية الإسلامية فى كتاب الشعر والشعراء فى موريتانيا للدكتور محمد المختار ولد إباه وكذلك كتابه دراسات فى تاريخ التشريع الإسلامى فى موريتانيا .

وتوفى – كما أسلفنا – فى جهاد برغواطة الضالة فى المغرب الأقصى وقضى عليها قضاء مبرما أبو بكر ، وعاد بشطر كبير من جيشه إلى قواعده بمنطقة أدرار فى موريتانيا وأخذ يعد حملاته إلى أنحاء السودان الغربى ، ودان له ودخل كثيرون من أهله فى الإسلام وتحولت كثرة من جيشه ، يعلمون أهل السودان الغربى شئون دينهم ، ويحفظونهم القرآن الكريم .

وذلك كان فضلا عظيما لصنهاجة موريتانيا ، وعاد كثيرون منهم إلى موريتانيا سوى من كانوا لا يزالون بها ، وفى كل بلدة وفى كل حى من أحياء القبائل البدوية كانت الناشئة تدوِّى – دوىَّ النَّحْل – بآى القرآن الكريم ، وكانوا – بعد ترتيله أو تجويده – يلتحقون ببعض العلماء ، ولكن ليس فى أيدينا شىء سجلوه عن التعليم فى ديارهم ، إنما تُلْتَقَطُ – منذ القرن السادس الهجرى – أخبار العلماء وأسماؤهم التقاطا ، كأن يقال إن غزو قبائل الصوصو لعاصمة غانة : كومبى صالح سنة ٦٠٠ هـ/١٢٠٤ م جعل الشيخ إسماعيل وبعض علمائها يفرّون منها مع فريق من المسلمين إلى ولاته ، مما أحالها مركزا تجاريا مهما وأحدث بها حركة علمية نشيطة ، ولا نعود نسمع عن ولاته أخبارا ، حتى إذا كانت سنة ٧٥٣ هـ/١٣٥٢ م زارها ابن بطوطة ونوَّه بإكرام أهلها وقاضيها له ، ونمضى إلى سنة ٨٧٣ هـ/١٤٦٨ م فيغزوسن على ملك صنغى تمبكتو ويشعل فيها النيران ويقتل خلقا كثيرا ، ويرحل منها فقهاؤها إلى مدينة ولاته وفى مقدمتهم عمر بن محمد أقيت وأولاده وكلهم أصبحوا فقهاء ، ولقى بها فقيهها ومحدثها الإمام الزمورى ، وأجازه كتاب الشفاء للقاضى عياض السبتى المتوفى سنة ٥٤٤ هـ/١١٤٩ م ، وسمعه منه معه وأجازه صهره الفقيه المختار النحوى المتوفى سنة ٩٢٢ هـ/١٥١٦ م . ويذكر الحفناوى فى كتابه تعريف الخلف برجال السلف فقيها من فقهائها هو عبد الله بن عمر المسوفى المولود سنة ٨٦٦هـ/١٤٦١م والمتوفى سنة ٩٢٩ هـ/١٥٢٢ م ويقول إنه كان غاية فى الزهد والورع . وكان يعاصره فى مدينة وادان الفقيه محمد بن أحمد بن أبى بكر الوادانى وله شرح على مختصر خليل فى مجلدين سماه « موهوب الجليل بشرح خليل » وكان حيا سنة ٩٣٣ هـ/١٥٢٦ م . ويذكرون عن مؤسس مدينة تشيت فى القرن السادس الهجرى الشريف عبد المؤمن أنه كان تلميذا للقاضى عياض ولابد أنه أسس فيها حركة علمية على عادة الفقهاء ، غير أنه ليس بين أيدينا شىء عنها وكذلك عن مثيلاتها فى شنقيط وغيرها من مدن موريتانيا فى القرن العاشر الهجرى وما قبله من القرون .

### (ب) التعليم والطلاب والشيوخ

الأخبار عن الحركة العلمية فى موريتانيا إنما تأخذ فى النمو منذ القرن العاشر الهجرى حين تم تعربها بفضل قبائل المعقل العربية : حسان وغيرها ، ويسوق الشنقيطى فى كتابه تراجم أدباء شنقيط وكذلك الدكتور محمد المختار ولد إبَّاه فى كتاباته أخبارًا مختلفة عن تلك الحركة ،

فمن ذلك أنهم كانوا يختبرون الصبى إذا بلغ خمس سنوات من عمره فى حفظ الأعداد الأولى من واحد إلى عشرة فإذا تعلمها وذكرها سريعا أخذوا فى تعليمه الحروف الأبجدية ثم يعلمونه الحركات : الضمة أو الرفع والفتحة أو النصب والكسرة أو الجر ، ثم يحفظونه القرآن الكريم ، ويذكر الشنقيطى أن كثرة معلمى الصبية فى هذه الدورة كُنَّ من النساء ، مما يدل على أن النساء فى موريتانيا كن يتعلمن حتى يصبحن صالحات لتعليم الصبية . ويقول الحسن الوزان فى حديثه عن مدينة تشيت إن « النساء هن اللائى يتعلمن ويقمن بدور معلمات المدرسة للفتيات والفتيان » وبعد حفظ الصبى القرآن وتعليمه الكتابة يبدأ فى الالتحاق بشيخ ليتعلم على يديه بعض العلوم . والبيئات تختلف فى نوع العلوم التى يبدأ الصبى بتعلمها فى سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة ، بعد حفظ القرآن فأهل منطقتى آدرار وتكانت ومن حذا حذوهما يبدأون بتعليم الفقه على مذهب الإمام مالك فى متن مختصر لعبد الرحمن الأخضرى الجزائرى ومنظومة لابن عاشر فى الفقه ثم ينقلونه إلى دراسة رسالة ابن أبى زيد رئيس المالكية فى القيروان والبلاد المغربية ، ثم يدرس مختصر خليل بن إسحق المالكى المصرى وبعض شروحه . وبلدان أخرى يبدأ فيها الناشىء بدراسة بعض دواوين العرب والعقائد الأشعرية وتآليف السنوسى الجزائرى فى علم التوحيد ثم يقرءونه الفقه والنحو . وبلدان تبدأ بتعليم علوم البلاغة والمنطق .

ولم تكن هناك حكومة أو جهات تنفق على الطلبة والعلماء ، وكان الطلبة يؤمون – فى أحيان كثيرة – علماء بعيدين عن أوطانهم ، فكيف يتعيش الطالب الموريتانى إذن ، يقول الشنقيطى إن أكثر الطلاب يأخذ الواحد منهم بقرة حلوبا أو بقرتين وربما ثلاثا ، وإذا كان الشيخ صاحب إبل أخذ الطالب ناقة أو ناقتين وربما ثلاثا ، ويتجمع الطلاب ساعة الحلب ويتناول كل منهم ما يكفيه من اللبن . ويتناوبون رعى بقرهم ونوقهم ، ويأخذ راعيها معه كتابه أو لوحه ، ويقرأ فى الكتاب أو يحفظ ما فى اللوح ، وبالمثل يتناوبون سقى نوقهم أو بقرهم . ومع هذه المشقة كان طلاب موريتانيا يقبلون على دروس العلماء الكبار . وكان العلماء – مثل الطلاب – لا ينفق عليهم أحد ما يستعينون به فى حياتهم ومعيشتهم ، ولم يكن أحد من الطلاب يعطيهم شيئا نظير تعلمه ، بل على العكس كانوا يعطون المحتاجين من الطلاب بعض ما ينفقونه . ولم يكن فى موريتانيا مدارس بالمعنى المعروف إنما كان فيها محاظر منتشرة فى مدنها ومراعيها من ضفاف نهر السنغال إلى الساقية الحمراء غربا وفى الحوض جنوبا وفى الصحارى الشرقية حيث ترى شيخا بدويا كسائر البدو متقشفا فى ملبسه بالمراعى وبالمثل فى المدن ، وترى أمام بيته أو خيمته طائفة من الشبان كثيرة أو قليلة تسكن تحت الشجر أو تحت عريش من الخشب ، ومنذ الضحى يلتفون حول الشيخ ، وقد يدعوهم إلى بيته أو يلتقى بهم فى مسجد ، وقد يلقى الدرس جالسا أو قائما ، وقد يلقيه خارج بيته والمسجد ماشيا ، وقد

يقرأ الطلاب نصا بعينه مع شيخهم . وقد يُقْرئهم ويعلمهم أشتاتا ، وهو الغالب ، فالطالب يختار مادة قراءته حسب حاجته من فقه أو نحو أو بلاغة ، وترى الشيخ مثلا يدرس لعشرة من الطلاب ألفية ابن مالك وطالب يقرأ من أولها وثان من وسطها وثالث من أواخرها ويشرح لكل طالب ما يقرؤه ، وهكذا فى الفقه وغيره من العلوم . ومثلا ثانيا إذ يستمع الطلاب إلى شيخ يشرح نصا فى مختصر خليل فى الفقه ، إذا هو ينتقل إلى باب من ألفية ابن مالك ، ثم إلى درس فى علم التوحيد أو فى علم المنطق أو فى العروض ، وقد ينتقل من ذلك إلى شرح بعض أشعار الجاهليين أو الإسلاميين . وتعجب إذ ترى هذا الشيخ العالم يسوق فى الصباح بقرة إلى موضع للرعى ، والقدوم على عاتقه يقطع به أعوادا من الشجر ليبنى بها بئرا ، ويذهب إليه ليرى المكلفين بالعمل فيه ، ويعود – بعد ذلك – ليدرس لتلاميذه طوال النهار ، حتى إذا انتهى من صلاة العشاء ونام الناس أخذ يعنى بتصنيف كتاب له أو بالقراءة فى بعض الأمهات والأصول من الكتب .

### (جـ) أمهات الكتب والمتون والشروح المتداولة

على سنة البلاد العربية جميعا حازت موريتانيا لنفسها كثيرا من أمهات الكتب ومتونها المشهورة وشروحها ، واعتمدوا فى كثير منها على أعمال الأندلسيين والمغاربة وبالمثل أعمال المصريين إذ كان بعض شبابها يتلقى العلم عن أساتذته فى البلاد المغربية والمصرية ، وطبيعى أن يكثر الواردون منهم على علماء فاس وغيرها من البلاد المغربية . وكان منتشرا فى مكتبات البلدان والقبائل فى القراءات كتاب التيسير فى القراءات السبع لأبى عمرو عثمان بن سعيد الدانى وقصيدة « حرز الأمانى فى القراءات » للشاطبى الضرير القاسم بن فيرُّه وهى ألف ومائة وسبعة وثلاثون بيتا ، ويقول ابن خلدون : « استوعب الشاطبى ما دوَّنه الدانى فى القراءات بقصيدته ، وعُنى الناس بحفظها وتلقينها للولدان المتعلمين ، وجرَى العمل على ذلك فى أمصار المغرب والأندلس » .

وكانوا يعتمدون فى التفسير كما يقول الدكتور محمد المختار – على كتاب التفسير الكبير لابن عطية الأندلسى قاضى المرية ، وهو من أهم الكتب فى التفسير وسماه الوجيز فى التفسير تواضعا وهو فى مجلدات ضخمة ، ويقول ابن خلدون إنه لخَّص فيه التفاسير المأثورة كلها وتحرَّى الأقرب منها إلى الصحة . وتداول تفسيره بعده أهل المغرب والأندلس . واعتمدوا أيضا على تفسير القرطبى المسمى « جامع أحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآى القرآن » وهو فى عشرين مجلدا سار فيه على نهج ابن عطية السنى .

وكانوا يتداولون فى الحديث النبوى كتب الصحاح الستة للبخارى ومسلم والترمذى وابن ماجة وأبى داود والنسائى ، ويقول الدكتور محمد المختار إن أهم محدث كانوا يعنون بكتبه

أبو الوليد الباجى الأندلسى ، وخاصة كتابه المنتقى فى شرح الموطأ وتخريجه لما فيه من الأحاديث ، ويذكر أن الموريتانيين عنوا عناية خاصة بكتابه وبشعره وأدبه .

وكانوا يعكفون فى الفقه المالكى على منظومة ابن عاشر ورسالة ابن أبى زيد القيروانى ومختصر خليل بن إسحق وشروحه ، وعنوا بدراسة كتابات أبى عمرو يوسف بن عبد البر الذى تعتز به المالكية وبكتاباته فى الفقه المالكى وفى مقدمتها التمهيد والاستذكار وكتاباته التاريخية وفى مقدمتها الاستيعاب فى تراجم الصحابة ، وبالمثل عنوا فى الفقه المالكى بكتابات ابن رشد الفقيه الكبير جد ابن رشد الفيلسوف وكتاباته الفقهية من مثل البيان والتحصيل ومقدماته على المدونة .

ومن كتب النحو التى كانوا يتداولونها متن الآجرومية لابن آجروم الصنهاجى ، وكان الأزهر فى مصر إلى عهد قريب يبدأ به دراسة النحو لطلابه ، وعنوا بألفية ابن مالك وشروحها وبكتابه لامية الأفعال ، وعنوا بألفية السيوطى المسماة الفريدة وبكتب نحوية مختلفة سيأتى ذكرها فى الترجمة لعلماء العربية .

وعنوا فى علم الكلام والتوحيد بالعقائد الأشعرية وكتابات السنوسى والجزائرية وإضاءة الدجّنة للمقّرى ، وكانوا يقرءون متن السلم للأخضرى فى المنطق . ودرسوا شرح الأعلم الشنتمرى للشعراء الستة : امرىء القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة . وعرفوا أهم الكتب الأدبية ، وفى مقدمتها الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى والأمالى لأبى على القالى والكامل للمبرد وزهر الآداب للحصرى وبهجة المجالس لابن عبد البر وخزانة الأدب للبغدادى كما عرفوا دواوين كثيرين من الشعراء على مر العصور .

وهذا الحشد من المؤلفات التى كانت متداولة فى موريتانيا ، والتى عنى بإحصائها الدكتور محمد المختار فى مقدمات كتابه : « الشعر والشعراء فى موريتانيا » يدل بوضوح على أن موريتانيا – وإن لم تقم على شئونها قبل العصر الحديث دولة تنظم ثقافتها وحياتها العلمية – فإنها استطاعت بفضل عنايتها بالعلوم الإسلامية أن تصبح ذات ثقافة علمية قيمة وأن يصبح لها علماء فى مختلف فروع العلوم الإسلامية والعربية .

### ( د ) أعلام العلماء فى موريتانيا

نتوقف قليلا لنعرض أعلام موريتانيا من العلماء ممن ترجم لهم الدكتور محمد المختار ترجمات مفصّلة فى كتابه : « دراسات فى تاريخ التشريع الإسلامى فى موريتانيا » وسنعرضهم عرضًا تاريخيًا موزعين على العلوم الإسلامية والعربية ونضم إليهم طائفة من العلماء المترجم لهم عند الشنقيطى فى القرن الثالث عشر الهجرى قبل العصر الحديث . ومن الصعب الدقة فى هذا

التوزيع لأن العلماء كانوا غالبا موسوعيين ، ولذلك كثيرا ما يقال عن العالم إنه فقيه محدث متكلم نحوى ، وتحار أى مجموعة من العلماء تضعه فيها ، أو يقال مثلا إنه جامع لأنواع العلوم من تفسير وحديث وفقه وأصول ونحو ولغة ، ومع ذلك سنحاول هذا التوزيع لندل على أن النشاط كان متسعا فى مختلف العلوم .

**(هـ) القراء والمفسرون والمحدثون والفقهاء**

أول من يلقانا من علمائهم قراء الناشئة ويعدون بالعشرات إن لم يكن بالمئات من مثل محمد بن أبى بكر من ولاته المتوفى فى القرن الثانى عشر الهجرى وكان ملازما لإقراء الناشئة ، صوفى النزعة . ومن أئمة القراءات عبد الله بن أبى بكر التنواجيوى رحل إلى أحمد الحبيب اللمطى السجلماسى وقرأ عليه السبع وكان يدرس لطلابه الشاطبية ويفسرها لهم توفى سنة ١١٤٥ هـ/١٧٣٢ م ومن تلاميذه عمر بن أحمد الإيديلبى كان قارئا بالسبع ، توفى سنة ١١٥٢ هـ/١٧٣٩ م وظلت إمامة القراءات فى بيت التنواجيويين واشتهر بالإمامة فيها الشيخ أحمد بن محمد التنواجيوى المتوفى سنة ١٢١٠ هـ/١٧٩٥ م وكانت أكثر عبادته إقراء القرآن ، وقد أخذ القراءات السبع عن محمد بن عبد الله التنواجيوى .

ويذكر كثيرا عن هذا العالم أو ذاك أنه كان يفسر القرآن الكريم بجانب ما كان يلقى على طلابه من دروس فى الفقه أو فى النحو أو فى علم الكلام أو فيها جميعا ، وكثيرا ما يُذكر مع المحدثين أنهم كانوا يعنون بتفسير الذكر الحكيم ، واشتهر منذ النصف الأول من القرن الحادى عشر الهجرى محمد بن سعيد اليدالى الديمانى بتفسير قيم لكتاب الله العزيز فى مجلدين سماه « الذهب الإبريز على كتاب الله العزيز » . ويلقانا بعده المختار الكنتى وتفسيره للبسملة ولسورة الفاتحة .

ونلتقى بكثير من أئمة الحديث مثل محمد بن الحاج عثمان الجمانى فى النصف الأول من القرن الحادى عشر وهو تلميذ نور الدين الأجهورى شيخ المالكية فى مصر ، ومن أئمة المحدثين عمر بن محمد بن عبد الله المحجوبى المتوفى سنة ١٠٧٠ هـ/١٦٥٠ م وله فى صحيح البخارى سند يصله بمؤلفه وله مصنفات كثيرة منها مقدمة فى الفقه فأرجوزة فى علم الكلام ، ومنهم سيد عثمان بن عمر المتوفى سنة ١١٢٨ هـ/١٧١٦ م بولاته ، وكان يقرىء صحيحى البخارى ومسلم وموطأ مالك وفيها جميعا وفى كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضى عياض أجيز بروايتها جميعا من جلة العلماء فى مصر والمدينة المنورة وموريتانيا . ومنهم عمر بن باب وكان يقرأ صحيح البخارى فى المسجد وسنذكره بين النحاة . ومنهم محدث مدينة أروان أحمد بن البشير حامل روايات صحيحى البخارى ومسلم والشفاء ، وكان يضيف إلى الحديث

التفسير وقراءة نافع برواية قالون ، توفى سنة ١١٨٤ هـ/١٧٧١ م . ومنهم أحمد بن خليفة محدث شنقيط المتوفى سنة ١١٨٨ هـ/١٧٧٥ م وكان يقرىء صحيح البخارى وكتاب الشفاء للقاضى عياض .

وللفقه أعلام كثيرون من الفقهاء كانوا منبثين فى كل بلد وكل حى من أحياء القبائل نذكر منهم الفقيه محمد الملقب بالتنبكتى المتوفى سنة ١٠٥٠ هـ/١٦٤١ م وكان قاضى مدينة ولاته وعالمها ، ومنهم أحمد بن القاسم الحاجى فقيه وادان وله شرح على مختصر خليل بن إسحق ، توفى سنة ١٠٨٦ هـ/١٦٧٦ م وحمل عنه تلميذه أحمد أبو الأوتاد مختصر خليل وشرحه إلى تشيت . ومنهم سيد أحمد الولى بن أبى بكر المحجوبى قاضى ولاته وإمامها ومدرسها وكان ماهرا فى التفسير والنحو ويحفظ مقامات الحريرى ، توفى سنة ١٠٩٥ هـ/١٦٨٤ م . ومنهم الفقيه محمد بن أبى بكر الغلاوى وكان عالما بالفقه والنحو مطلعا على دقائقهما بصيرا بالفتوى فى النوازل مطلعا على كتب الفقه المالكى المعتمدة ، وله رسالة فى علم الكلام باسم عقيدة التوحيد ، توفى سنة ١٠٩٨ هـ/١٦٨٧ م . ومنهم الفقيه محمد المختار ابن الأعمش وهو إمام كبير وتلاميذه كثيرون انبثوا فى أنحاء موريتانيا توفى سنة ١١٠٧ هـ/١٦٩٦ م . ومنهم الحسن بن أغيد فقيه تشيت ، درس وأفاد وأحيا بفتاويه سبيل الرشاد ، وكان يقال من فاته الحسن البصرى بمواعظه فعليه بالحسن اليوسى ( المترجم له فى المغرب الأقصى ) ومن فاته اليوسى فعليه بالحسن بن أغيد ، وكان إماما فى الفقه والحديث مستحضرا لهما مشاركا فيهما ، وكان قيما على مختصر خليل حسن الإقراء له ، وله منظومة فى مصطلح الحديث سماها روضة الأزهار وجعل عليها شرحا باسم قرة الأبصار ، وله منظومة أخرى فى التوحيد سوى فتاوى مفيدة ، توفى سنة ١١٢٣ هـ/١٧١١ م . ومنهم محمد بن أبى بكر المحجوبى الولاتى فقيه ابن فقيه ابن فقيه ثلاثة فى نسق وكان جامعا لأنواع العلوم من تفسير وحديث وفقه وأصول ونحو ولغة وله منظومة فى علم أصول الدين ، ولعلها فى التوحيد ، توفى سنة ١١٣٧ هـ/١٧٢٤ م . ومنهم أحمد ابن إند عبد الله بن على المحجوبى ، وإليه انتهت رياسة الفتوى والقضاء فى مدينة ولاته ، وله منظومة فى علم الكلام وأخرى فى الفرائض ( المواريث ) حجَّ فى ركب من أهله ، ولقى كبار العلماء وأخذ عنهم ، توفى سنة ١١٤٠ هـ/١٧٢٧ م . ومنهم سيد أحمد الشواف قاضى وادان كان فقيها محدثا وشيخا صالحا وله فتاوى فقهية ، وهو من تلاميذ الحسن بن أغبد فقيه تشيت ، توفى سنة ١١٤٠ هـ/١٧٢٧ م مثل سابقه . ومنهم الشيخ أحمد بن محمد الجمانى ، له فتاوى فقهية وهو أيضا تلميذ الحسن بن أغيد ، توفى سنة ١١٥١ هـ/١٧٣٨ م . ومنهم الشريف أحمد بن فاضل ، وهو من تلامذة الحسن بن أغيد ، وكان إماما عالما ، وكان المفزع إليه وإلى أخيه فى الفتيا ، وله ولأخيه فتاوى مجموعة ، توفى سنة ١١٥٣ هـ/١٧٤٠ م . ومنهم محمد بن الحسن بن أغبد كان يتقن الفقه والحديث والنحو فيقرىء طلابه رسالة ابن أبى زيد

الفقهية ومختصر خليل ويحدث بصحيح البخارى ويدرس ألفية ابن مالك وكانت له حلقة كبيرة يؤمها الطلاب فى تشيت ، وكان يدرس للرجال نهارًا وللنساء ليلا ، توفى سنة ١١٥٩ هـ/١٧٤٦ م . ومنهم الشريف حَمَى الله ابن الشريف أحمد الحسنى ، وكانت له فتاوى فقهية متداولة فى موريتانيا ، وله شرح منظومة الأوجلى فى التوحيد ونظم صغرى السنوسى فيه ، توفى سنة ١١٦٩ هـ/١٧٥٥ م . ومنهم إند عبد الله بن أحمد المحجوبى قاضى ولاته ، برع فى الفنون كلاما وفقها وأصولا ونحوا ومنطقا ، له فتاوى فقهية وشرح على لامية الزقاق فى مجلد ضخم ، توفى سنة ١١٧٢ هـ/١٧٥٩ م ومنهم سنبير قاضى أروان وكان بحرا فى الرواية والدراية توفى سنة ١١٨٠ هـ/١٧٦٧ م . ومنهم عمر الخطاط ، كان من الفقهاء البارعين ، وكان يقرىء الطلاب مختصر خليل قراءة تحقيق ، وكثر تلاميذه وطلابه حتى ربما بلغوا فى حلقته المائة ، توفى سنة ١١٩٦ هـ/١٧٨٢ م ومنهم عبد الله بن عبد الرحمن التشمشاوى الديمانى له شرح فى جزء على مختصر خليل فى الفقه المالكى سماه : « شفاء الغليل وراحة العليل على مختصر الشيخ خليل ، توفى سنة ١٢١٢ هـ/١٧٩٨ م . ومنهم عبد الله بن أحمد الغلاوى البكرى ، فقيه أهل الحوض ، وله منظومات علمية كثيرة ، توفى فى صدر القرن الثالث عشر الهجرى . ومنهم عبد الله بن إبراهيم بن الإمام العلوى فقيه تيججكه ، كان عالما فقيها محدثا أصوليا بيانيا مفتيا ومدرسا ، وله منظومات فى علم الحديث وفى علم البيان وأعجب به محمد بن عبد الله سلطان المغرب الأقصى فأهداه خزانة كتب كبيرة نفيسة جدا ، وحج واجتمع بعلماء القاهرة وسمع به محمد على والى مصر فأكرمه ، توفى سنة ١٢٣٣ هـ/١٨١٧ م . ويتكاثر الفقهاء فى القرن الثالث عشر الهجرى ومنهم باب بن أحمد بيب ، وله شرح على كتاب التحفة لابن عاصم ، وكان ابن فرحون انتهى فى ترجماته لفقهاء المالكية بكتابه الديباج عند القرن السابع فأكمل ترجمة نظرائهم من الفقهاء حتى القرن الثانى عشر الهجرى/الثامن عشر الميلادى ، توفى سنة ١٢٧٦ هـ/١٨٥٩ م وكان ابنه التجانى فقيها مثله درس عليه فى أول أمره وعلى والدته الصالحة العالمة خديجة بنت المختار بن عثمان ، وكان من أعاجيب الدهر فى الذكاء ، وكان عالما بفن السِّير والفقه والأصول والبيان والنحو والتصريف واللغة والمنطق ، وله نظم فى أزواج الرسول ﷺ وأولاده وله عليه شرح نفيس مجلد ، ونظم ورقات أبى المعالى إمام الحرمين فى علم الأصول ، توفى قبل أبيه بنحو عشرة أعوام . ومنهم الشيخ سيدِىَّ الأُبَيْرِىَّ الكبير ، وكان عالما بالفقه والنحو ودقائقهما وله شرح على مختصر خليل باسم مرآة النظر فى وجوه خبايا المختصر ، وشرح ثان على باب الفرائض منه ، توفى سنة ١٢٨٤ هـ/١٨٦٧ م . ومنهم محمد بن محمد سالم المجلسى ، وله فى شرح مختصر خليل شرح باسم : لوامع الدرر فى هتك أستار المختصر ، توفى سنة ١٣٠٢ هـ/١٨٨٥ م .

## ( و ) أعلام النحاة والمتكلمين

نستطيع أن نقول إن كل هؤلاء الفقهاء كانوا يتقنون العربية وقواعدها النحوية إتقانا حسنا ، وممن اشتهروا بعلم العربية وتعليمها المختار النحوى الذى رحل فرارا من سُنَّ على حين استولى على تنبكتو مع صهره الفقيه المتقدم ذكره عمر بن محمد أقيت ونزل معه ومع أبنائه الفقهاء مدينة ولاته وظل بها يدرس النحو لطلابه إلى أن توفى سنة ٩٢٢ هـ/١٥١٦ م . وتزدهر الدراسات النحوية منذ القرن الحادى عشر الهجرى/السابع عشر الميلادى ونلتقى فى صدره بمحمد بابا بن محمد الأمين ، وله عدة مصنفات ، أهمها شرحه لألفية السيوطى فى النحو وسماه المنح الحميدة فى شرح الفريدة ، توفى سنة ١٠١٤ هـ/١٦٠٥ م . وممن نلتقى به بعده من النحاة فى آخر القرن وصدر القرن التالى أبو بكر الطفيل بن أحمد وكان نحويا فقيها منطقيا ونظم كتاب قطر النَّدَى فى النحو لابن هشام فى أربعمائة بيت ، توفى سنة ١١١٦ هـ/١٧٠٤ م وكان يعاصره محمد بن موسى بن إيجل علامه تشيت وكان فقيها نحويا لغويا أصوليا بيانيا عروضيا منطقيا ، وله فى النحو أوراقه المشهورة التى انتفع بها طلبة موريتانيا سماها : « كشف النقاب فى قواعد الإعراب » وشرحها ، وله فى علم المنطق كتاب : « رَتْق الحجر العَلِق فى أصول وفصول المنطق » توفى سنة ١١١٧ هـ/١٧٠٥ م . ومن نحاة القرن الثانى عشر منير بن حبيب الله ، له شرح مفيد على الخلاصة رتب فيه توضيح ابن هشام ، وكان يقرىء الألفية لابن مالك ، توفى سنة ١١٦٢ هـ/١٧٤٩ م . ومنهم أحمد بن أحمد بن الإمام كان فقيها نحويا لغويا محققا ، وكان يقرأ لطلابه ألفية ابن مالك قراءة تحقيق وتدقيق ، توفى سنة ١١٧٨ هـ/١٧٦٥ م . ومنهم الشريف المختار بن أحمد بن الإمام أحمد الإدريسى كان هو وأخواه من العلماء النجباء ، وكان يقرىء تلاميذه ألفية ابن مالك مستفيضا فى الشرح والتحقيق ، توفى سنة ١١٨٠ هـ/١٧٦٧ م ، ومنهم الإمام عمر مم الولاتى ، كان نحويا لغويا أديبا أخذ الناس عنه العربية وكان يقرىء طلابه الآجرومية وألفية ابن مالك ولاميته فى التصريف قراءة بحث وتحقيق ، كل مرة يزيد البحث فيها عن المرة السالفة ، توفى سنة ١٢٠١ هـ/١٧٨٧ م . ومنهم عبد الله بن الطالب أحمد الشنقيطى ، كان عارفا بأصول الدين قارئًا فائقًا فى العربية وعلوم البلاغة لا يبارى – كما يقولون – ولا يجارى ، له مؤلفات مختلفة فى القراءات السبع والفقه والحديث ، وله شرح على الكافية لابن الحاجب ومقدمة فى النحو للمبتدئين ، وشرح على الألفية ، وله شرح كبير وصغير لقصيدة بانت سعاد وشرح للامية العرب ، وشرح على نظم التلخيص للقزوينى وشروح أخرى كثيرة ، توفى سنة ١٢٠٩ هـ/١٧٩٥ م . ومنهم محمد بن أحمد بن الطالب الأمين كان نحويا لغويا عروضيا متكلما ، وكان يقرىء طلابه فى النحو الآجرومية وألفية ابن مالك ولامية الأفعال ، وكان يقرئهم فى العروض متن الخزرجية ، توفى سنة ١٢١٥ هـ/١٨٠١ م . ومنهم المختار بن بون العالم النحوى الكبير ، وكان العلماء

قبله لا يكادون يتجاوزون ما فى الألفية وشروحها فنظم لهم وألف كتبا مفيدة ذكر فيها لكل مسألة الشواهد من كلام العرب ، فذلّل لهم بذلك النحو وقواعده ، واستقدمته قبائل الزوايا لتعليم أبنائهم العربية ، وله مقدمة فى النحو ألفها للمبتدئين ، توفى حوالى سنة ١٢٢٠ هـ/١٨٠٦ م . وتعاقبت له مدرسة حتى نهاية هذا العصر قبل العصر الحديث وما فرض على موريتانيا من الحماية الفرنسية ، إذ تتلمذ له بُلاَّ البوحسنى الشقراوى ، وكان عالما مشهورا ونحويا كبيرا ، وهو أحد من تخرجوا على يديه ، ومن أهم تلاميذ بُلاّ عبد الودود بن عبد ألَّ ، وهو – كما يقول الشنقيطى –نحوى شهير ، انفرد به من غير نكير ، أوضح للناس أسراره ، وأعلى مناره ، وبلغ فيه مبلغا لم يبلغه غيره ، وتخرج على يديه الحسن بن زين ، ويقول الشنقيطى له استدراك على لامية الأفعال لابن مالك ، وتخرج على يديه سيبويه البلاد ، يحظية بن عبد الودود ، توفى قريبا من سنة ١٣٢٠هـ/١٩٠٣م .

ومن العلوم التى اهتم بها العلماء فى موريتانيا علم الكلام أو التوحيد ويتردد فى نعت كثير من فقهائهم ونحاتهم أنهم كانوا متكلمين ، وممن ألف فى علم الكلام مبكرا محمد بن أحمد الحسانى المعقلى ، وله فيه شرح الصغرى للسنوسى ، توفى سنة ١٠٤٨ هـ/١٦٣٩ م . وكان عمر الولاتى الملقب بالخطاط أشعريَّ العقيدة ، وكان مداوما على علم الكلام قراءة ونقلا وتعليما ، وكان يقول : لو علمتُ عقيدة من علم الكلام لا أعرفها وفى مصر من يعرفها لرحلت إليه حتى أتعلمها ، وكان يقرىء فيه كتب السنوسى ودليل القائد والجزائرية وإضاءة الدجنة للمقرى ، توفى سنة ١١٠٧ هـ/١٦٩٥ م . ومنهم الطالب الأمين بن الحبيب الخرشى كان غاية فى علم التوحيد ، يقرىء عقيدة السنوسى المعروفة بأم البراهين وعقيدته الصغرى وإضاءة الدجنّة ومنظومة الجزائرى ودليل القائد قراءة تحقيق توفى سنة ١١٦٦ هـ/١٧٥٣ م . ومن المتكلمين محمد بن يدفور قاضى تشيت ، وكان يقرىء طلابه عقائد السنوسى الخمس ودليل القائد وإضاءة الدجنّة وجوهرة التوحيد ، كما كان يقرئهم قراءة نافع وألفية ابن مالك وقطر الندى لابن هشام ، وتوفى سنة ١١٨٨ هـ/١٧٧٥ م . ومنهم الشيخ محمد بن عمر الخطاط الولاتى وطنا المالكى مذهبا الأشعرى اعتقادا الشاذلى طريقة ، أخذ العقيدة الأشعرية عن أبيه عمر والفقه والفرائض عن عبد الله بن أبى بكر الولاتى والمنطق والعروض عن محمد بن موسى بن إيجل الولاتى والحساب والفلك عن التقداسى ، وله مقدمة فى التوحيد سماها جوهرة الإرشاد ، توفى سنة ١١٩١ هـ/١٧٧٨ م .

ومرَّ ذكر المختار بن بون بين النحاة ، وله كتاب وسيلة السعادة فى علم التوحيد اختصر فيه تصانيف السنوسى الخمسة فى العقيدة مع بعض زيادات ، ويمكن أن يتخذ رمزا لكثير من علماء موريتانيا الموسوعيين ، فهو ينظم تلخيص القزوينى فى علوم البلاغة ، ومختصر

السنوسى فى المنطق وجمع الجوامع فى الأصول للسبكى . وكثيرون كانوا يعنون بعلم المنطق إذ يُعْرَف به الصحيح من غير الصحيح فى التعريفات والأدلة والأقيسة ، وهو علم يونانى وضعه أرسطو ، ومنذ القرن الثانى الهجرى تتدارسه البيئات العلمية العربية ، فطبيعى أن يعنى به علماء موريتانيا . وبالمثل عنوا بعلوم البلاغة ، ونضرب مثلا ثانيا لهؤلاء العلماء الموسوعين هو عبد الله بن محمد الشنقيطى ، فقد كان يقرىء تآليف السنوسى وإضاءة الدجنة فى علم الكلام ، وتفسير القرآن ، وصحيح البخارى ، وجمع الجوامع فى الأصول للسبكى والسلم فى المنطق للأخضرى ومختصر السنوسى فى المنطق وتلخيص المفتاح فى علوم البلاغة للسكاكى ، وله أجوبة فقهية ومشاركة فى النحو والعروض وحظ من علمى الحساب والهندسة . ونَظَم كتاب التلخيص فى البيان والمعانى للقزوينى فى نحو خمسمائة بيت وسماه نزهة المعانى فى ظهور البيان والمعانى ، وله تآليف فى المنطق ، توفى سنة ١١٤٣ هـ/١٧٣١ م .

وعنوا بالتاريخ ولأحمد البدوى اليعقوبى منظومة جيدة فى غزوات الرسول ﷺ ، ومنظومة أخرى فى أنساب العرب ، ويكثر عندهم مثل هذه المنظومات .

ولعل فى كل ما أسلفت ما يصور بوضوح نشاط الحركة العلمية فى موريتانيا على الرغم من أنه لم تكن هناك حكومة ترعى العلم وطلابه وعلماءه ، إذ تجردت له فى كل بلدة وكل قبيلة صفوة من العلماء الأبرار درسْته لشباب موريتانيا على مر الحقب والأزمنة .

# الفصل الثالث

## نشاط الشعر والشعراء

### ١

#### تعرُّب موريتانيا

أخذت العربية تغزو موريتانيا مبكرة على ألسنة بنى وارث الصنهاجيين منذ أسلموا على يد عقبة بن نافع ( ٥٠ هـ/٦٧١ م – ٥٥ هـ/٦٧٥ م ) وأخذ الإسلام ينتشر بين الصنهاجيين فى صحراء موريتانيا لعهد موسى بن نصير ( ٨٦ هـ/٧٠٥ م – ٩٦ هـ/٧١٥ م ) وأخذ يتسع انتشاره بين القبائل الصنهاجية الصحراوية فى القرون الهجرية الثانى والثالث والرابع . وكان يعتمد حينئذ على الصلوات الخمس وما يتلى فيها من القرآن ، وما يتلوه الشيوخ فى المساجد من القرآن الكريم والحديث النبوى .

وكانت القبائل الصنهاجية تعتنق الإسلام فى تلك القرون أو تأخذ فى اعتناقه ، غير أنها لم تتداول العربية فى لغتها اليومية ، إنما كانت تتداول لغتها البربرية ، حتى إذا كانت حركة عبدالله بن ياسين المارة منذ سنة ٤٣٠ هـ/١٠٣٨ م أخذت القبائل الصنهاجية تعرف شريعة الإسلام معرفة صحيحة ، وأخذت تتحول إلى قبائل مجاهدة أو مرابطة تنشر تعاليمه فى السودان الغربى المدارى ، وتحمل الجماعات المنحرفة الضالة فى المغرب الأقصى من مثل البجلية والبرغواطية على اتباع نهجه القويم ، حينئذ أصبحت القبائل الصنهاجية فى موريتانيا تمثل شعبا مسلما من شعوب العالم الإسلامى ، شعبا تُبْنَى فى جميع أركانه المساجد ، ويقوم فيها أئمة وعاظ وشيوخ يقفون الناس على شئون دينهم ويحفظونهم بعض سور القرآن الكريم ، إن لم يكن القرآن جميعه ، كما يحفظونهم بعض الأحاديث النبوية .

وفى رأيى أن قلة من الصنهاجين الموريتانيين حفَّت بهؤلاء الشيوخ وعرفت العربية ، ولكن الكثرة الصنهاجية ظلت تتداول اللغة البربرية ، ويخفف من حدتها تلاوة القرآن فى المساجد ونزول بعض الشيوخ فى البلدان الموريتانية مثل نزول الشيخ إسماعيل – كما مر بنا – فى ولاته سنة ٦٠٠ هـ/١٢٠٣ م وقيام القضاة فيها على تنفيذ أحكام الشريعة مثل قاضى ولاته الذى أكرم ابن بطوطة حين نزل بلده سنة ٧٥٣ هـ/١٣٥٣ م ونوَّه بأخ له مدرس ، ويغزوسُنّ على تمبكتو ويشعل بها النيران سنة ٨٧٣ هـ/١٤٦٨ م فيفر فقهاؤها إلى ولاته وفى مقدمتهم الشيخ

عمر بن محمد أقيت مما أتاح لها أن تكون مركزًا لحركة علمية فى القرن العاشر الهجرى كما أتاح لأهلها فرصة واسعة للتعرب .

وبعد أكثر من قرن يرسل المنصور الذهبى السعدى حاكم المغرب الأقصى جيشا ضخما للاستيلاء على بلدان السودان الغربى كما أسلفنا ويفتتحها ويجند عرب المعقل فى جنوبى المغرب الأقصى والجزائر لحراسة فتوحه ، وتنزل حسان موريتانيا وتستقر فيها قبائلها فى أدراروتيرس والجنوب الغربى من موريتانيا ، وتنزل قبيلة البرابيش الحسانية فى مدينة تيشيت وقبيلة الأوداية الحسانية فى الصحارى الواقعة بين وادان وولاته . وهكذا تنتشر قبائل حسان العربية فى جميع موريتانيا ، ويتم بذلك تعربها كما تعرب المغرب فى منتصف القرن الخامس بالقبائل العربية من بنى سليم وهلال التى احتلت دياره وأرجاءه ، غير أن لسانهم الفصيح كانت قد عمت فيه عامية حسانية عربية خالفت من بعض الوجوه لسان أجدادهم فى بعض الأوضاع والتصاريف لاختلاطهم قرونا متوالية بالبربر . وقد نشرت هذه القبائل لغتها الحسانية العامية فى موريتانيا ، وهى عامية عربية . ومن الطريف أنها تحتفظ بالمثنى بينما يسقط من عاميات أخرى كالعامية المصرية ، ولم تأخذ موريتانيا عنها هذه العامية العربية وحدها بل حملت عنها أيضا ما كانت تنظمه فى مواطنها من الملاحم والأناشيد والقصائد التى تشتمل على أغراض الشعر العربى من المدح والغزل والفخر والحماسة والهجاء والرثاء . وعلى هذا النحو تعربت موريتانيا تعربا حسانيا ، فالألفاظ هى الألفاظ العربية والأوزان هى الأوزان العربية . ومعنى ذلك أن القبائل الحسانية الموريتانية كانت لا تزال تحتفظ بميراثها من الألفاظ وأوزان الأشعار وأغراضها ، مما يدل دلالة قاطعة على أنها كانت لاتزال تحتفظ بسليقتها العربية التى توارثتها منذ مئات السنين ، وهى سليقة تشهد بأن هذه القبائل لاتزال قبائل شعر وقصيد كما كان آباؤهم الأولون . ومعروف أن الأمم إزاء الشعر تختلف ، فهناك أمم شاعرة ، ومنها الأمة العربية ، فهى أمة شعر وشعراء ، مهما اختلف عليها من الأعصار ومن الخطوب والأحداث ، ومهما ظلت على فصحاها أو تطور بها الزمن ، واستخدمت لغة عامية مشتقة من فصحاها ومتصلة بها اتصال الفرع بأصله ، وحقا دخلت فيها بموريتانيا بعض ألفاظ بربرية وخاصة مما يتصل بتربية الخيل والإبل والبقر والزراعة والرى ، غير أن ذلك لم يخرجها عن صورتها العربية .

وبذلك توارث سكان موريتانيا السليقة الشعرية العربية ، وعمل الإسلام فى أن تستتم العامية الموريتانية على ألسنة كثيرين الفصحى إذ دارت على ألسنتهم فى حفظ القرآن الكريم وتعلمه وفيما أكبوا عليه من العلوم الإسلامية ، وقد مضوا يتعلمون العربية ويتعمقون فى دراسة أشعارها الجاهلية على مر العصور . وكانت المرأة – كما مر بنا – هى التى تقوم على تعليم الناشئة حتى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة سواء الذكور أو الإناث ، تعلمهم الكتابة والذكر الحكيم ،

مما جعل التعلم فى موريتانيا منذ القرن الحادى عشر الهجرى – وربما قبله – عاما فى البلدان والقبائل جميعها بحيث يقول الشنقيطى : « لا يوجد من بين قبائل الزوايا ذكر أو أنثى إلا يقرأ أو يكتب ، وإن وُجد فى قبيلة غير ذلك فإنه نادر بحيث لا يوجد فى المائة أكثر من واحد على تقدير وجوده » . وكأن الأمية تلاشت نهائيا فى قبائل الزوايا ، وهى إن لم تنحسر فى القبائل الموريتانية الأخرى نهائيا فإنها – هى والبلدان الموريتانية – كانت تسارع إلى التعلم ، يدل على ذلك فى مدينة ولاته مثلا أنها كانت مركزا كبيرًا من مراكز الثقافة العربية وأن علماءها كانوا كثيرين كثرة مفرطة ، وأخذت شنقيط وغيرها من مدن موريتانيا تزاحمها فى هذا المركز أو فى هذه المكانة .

ولعل فيما ذكرنا ما يدل بوضوح على أن التعرب فى موريتانيا كان آخذا فى النمو السريع منذ القرن الحادى عشر الهجرى ، بفضل من نزل فيها من قبائل حسان وما بثوّا فيها من الاستعداد للتعرب ، وبفضل إكباب أهلها على التعلم ، بحيث أصبح فيها كثرة من العلماء فى كل علم وكثرة مماثلة من شعراء الفصحى ، بل حتى يخيَّل إليك كأن الموريتانيين جميعا كانوا شعراء .

## ٢

### شعراء المديح

أكثر من يوجَّه إليهم المديح فى موريتانيا السادة والشيوخ ، إذ يشكر الشاعر من يقدم إليه معروفا أو صنيعا مثنيا عليه ومادحا ، ويمدح التلاميذ شيوخهم مصورين ما يتحلون به من علم وخلق رفيعين ، كما يمدح الشيوخ زملاءهم منوهين بتعمقهم فى العلوم وخاصة العلوم الإسلامية ، وبأخلاقيتهم المثالية الرفيعة ، وكثيرا ما ينوه الشاعر بشعر زميله وتفوقه فيه ، وقد يمدحون قبيلة ذاكرين فضائلها ، وقد يمدحون أحد سلاطين الدولة العلوية فى المغرب الأقصى . ونعرض أطرافا من مدائحهم ، فمن ذلك مدح المأمون اليعقوبى المتوفى سنة ١٢٣٨ هـ/١٨٢٣ م للمجيدرى بن حبيب الله وكان من أعلام العلماء فى موريتانيا كما كان شاعرًا ، واتصل بالسلطان المغربى محمدين عبد الله ( ١١٧١ هـ/١٧٥٧ م – ١٢٠٤ هـ/١٧٨٩ م ) ونال حظوة عنده ، وحين رحل إلى الحج أكرمه حاكم مصر ، وفى السلطان محمد يقول مشيرًا إلى منزلته منه : وكان يباحثه فى كثير من الأفكار العلمية ويحمد له آراءه ، كما أشار إلى حملة طائفة من معاصريه الموريتانيين عليه لإنكاره علم المنطق الأرسطاليسى والنهى عن دراسته[1] :

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا للدكتور محمد المختار ص ٢٣٣ .

بَلاه أميرُ المؤمنين محمدٌ ... وعاشره بالبحث حينًا من الدهرِ
وقد كان للإسلام بالنُّصْح راعيا ... وناهيك من ذى فِطْنَةٍ عالمٍ حَبْرِ
ولكن بادى الرأى أو بإشاعةٍ ... ترامَاه عن قوسٍ طوائفُ ذا العَصْرِ
وما كان فى كلٍّ العقائد لو دَرَوا ... يخالف أسلاف الأئمة فى فِتْرِ[1]
قفوا فانظروا فى نُكْرِهِ أعقائدٌ ... من الدين أم من منطقٍ سيقَ للسَّبْرِ[2]
أبانَ السُّيوطى نهجهم فيه جملةً ... وللقُرْطُبى من قبلهِ الأَخْذُ بالحَذْرِ

واليعقوبى ينوه بتكريم السلطان محمد بن عبدالله العلوى له ومعرفته بعلمه وفضله ، ويقول إنه عالم ذكى متعمق فى العلم ناصح للمسلمين ، ومن العجب أن ترميه جماعة – عن قوس واحدة – بأنه منحرف ، مع أنه متمسك كل التمسك بعقائد الدين لا يخالف أئمته السالفين فى قليل بل فى أقل القليل ، وكل ما فى الأمر أنه ينهى عن دراسة المنطق اليونانى ، وهى وجهة نظر يتفق معه فيها السيوطى المصرى والقرطبى الأندلسى . ويقول الشويعر أحد شعراء النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجرى فى مديح حُرَم بن عبد الجليل العلوى واسمه محمد[3] :

أمحمَّدٌ أم ليثُ غابٍ مقبلُ ... وجبينُه أم عارضٌ متهلِّلُ[4]
قاضى قضاةٍ قد نمتْه مشايخٌ ... يَسْمُو بهِ حسبٌ ومجدٌ عُدْمُلُ[5]
سَهْلُ الجنابِ يلينُ ما لاينتَهُ ... وإذا يُسام الخسفَ ليثٌ مُشْبِلُ[6]
يا مَنْ سما فوق الكواكب مجدُهُ ... النَّجْم وانٍ والسِّماكُ الأعْزلُ
إن الكمالَ إذا يفوزُ بهِ امرؤٌ ... فى هذه الدُّنيا فأنت الأكملُ

ويشيد بحرم قاضى القضاة ، ويجعله ليث غاب شجاعة وضراوة ، كما يجعل جبينه سحابا متهللا كناية عن كرمه المدرار ، ويشيد بآبائه وحسبه ومجده القديم ، ويقول إنه سهل الجناب سخىٌّ ، ولينٌ مع مَنْ يلاينه ، أما إذا سامه شخص خَسْفًا أو ظلما فإنه يصبح ليثا هصورا . ويذكر له أن مجده علا فوق الكواكب ، وأن النجم والسماك الجنوبى لا يلحقان شأوه ، وأنه إذا كان هناك شخص يفوز بنعت الكمال فأنت الأكمل الذى لا يبارى ولا يجارى . ويقول محمد مولود المباركى من شعراء القرن الثالث عشر الهجرى فى مديح محمد بن كمال[7] :

---

(١) الفتر : ما بين الإبهام والسبابة فى القياس .
(٢) السبر : الاختبار .
(٣) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٢٣٩ .
(٤) عارض : سحاب ممطر .
(٥) عدمل : قديم .
(٦) سامه خسفا : أذله أو ظلمه . ليث مشبلٌ له أشبال وأولاد .
(٧) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٢٧٢ .

يَلْقَى العُفــاةَ بواضــحٍ متبلِّجٍ ... متبسِّــمٍ يَسْتبشــر استهــلالا[1]
واللَّهُ إذ قسم المكارم فى الوَرَى ... أوفى له من حظِّه المِكْيالا
لو واجه البدرَ المنير بوجهِهِ ... لغدا بــه البــدرُ المنــيرُ هلالا
أو قابل الشمسَ المضيئة بالضُّحَى ... صَحْوًا لألبسَ وَجْهها أجْـلالا[2]
ولــو أنَّه وازنتــه بلدِاتِــه ... وزنــوا البعوض ووازنَ الأجبالا[3]
فتبــارك الله الذى أعطــاه ما ... يستوجب الإكــرامَ والإفضــالا

ومحمد مولود يمجِّد فى محمد بن كمال كرمه الفياض الذى يجعله يلقى السائلين بوجه مشرق سمح مبتسم مستبشر . ويقول إن الله إذ قسم المكارم فى الناس وفىَّ له حظَّه منها . ويعمد إلى المبالغة فى مديحه ، فلو أنه واجه البدر المنير بوجهه لتصاغر أمامه وغدا هلالا ، ولو أنه قابل الشمس المضيئة ضحى والسماء مصحية لباءت منه بكسوف ما مثله كسوف ، ولو أنك قارنته بأترابه لغدوا كأنهم بعوض أمام جبل أو جبال ضخمة ، فتبارك الله الذى تفضل عليه بكل هذه العطايا والمنح الجزيلة . ويقول على بن ألاَّ من شعراء القرن الثالث عشر الهجرى فى مديح بنى شعبان[4] :

اليومَ أصبح قد تفرَّدَ بالعُــلا ... والمجــدِ سادتُنا بنــو شَعْبانِ
النازلون من الثغور مَخوفَها ... والقائلــون هَلُمَّ للضيفــانِ
وإذا الأمور تعاظمتْ وتشابهتْ ... فصَلوا الخطاب بحكمةٍ وبيانِ
كم فيهمُ من ناشىءٍ ذى بهجةٍ ... يُبْدِى دقيقَ الفهم بين معانى
حفظَ المسائل والعقائد فَرْعَها ... والأصلَ بعد فصاحــةِ الألحــان
وحَوَى حديث المصطفى بنصوصهِ ... وشروحــه ومعــانىَ القــرآن
قــومٌ إذا ما أَسْنتوا جــادوا كما ... جادتْ سواكبُ صَيِّب التَّهْتانِ[5]

وهو يقول إن بنى شعبان تفردوا بالعلا والمجد والنزال الضارى فى الثغور المخوفة ، وهم ذوو الوجوه المستبشرة فى لقاء الضيفان ، وإذا الأمور ادلهمت وأشكلت نطقوا بفصل الخطاب فى حصافة وحكمة وبيان رائع ، وما أروع ناشئتهم ، فكم من ناشىء دقيق الفهم منهم ، حفظ مسائل الفقه والعقيدة فروعها وأصولها وحفظ حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم بنصوصه وشروحه كما حفظ معانى القرآن الكريم ، فما أعظمهم من قوم كرام وأى كرم إنهم إذا ما أجدبوا سنة استحالوا فى الجود غيثا مدرارا ، كما تجود مواكب السحب المتراكمة

(١) العفاة : السائلون – متبلج : مشرق .
(٢) أجلال : جمع جل : غطاء .
(٣) الأجبال : جمع جبل .
(٤) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٢٧٥ .
(٥) أسنتوا : أجدبو . الصيب : السحاب الممطر . التهتان : السائل بغزارة .

المتدفقة . ويمدح الشاعر محمد بن محمد العلوى السلطان العلوى عبد الرحمن ابن هشام ( ١٨٢٤ - ١٨٥٩ م ) قائلا[١] :

خليفةُ مصباح الهدى وحفيدُهُ ... ومحيى لعافى رَبْعه المتقادم[٢]
غيورٌ على بيضاء سنَّته التى ... أُبيحتْ لها - لولاه - كلُّ محارمِ
أنام عيونَ الناس تحت عدالةٍ ... وَقَتْ رِجْلَ سارى الليل لَدْغَ الأراقم[٣]
فأصبح ثَغْرُ الأرض سُوقًا وأصبحت ... مَاسدُها مَرْعَى المخاضِ السواهم
حماها - حماه الله - أن تستبيحها ... من اعدائها دُهْم الدواهى الدواهم

وهو يقول إن سلطان المغرب الأقصى عبد الرحمن خليفة مصباح الهدى جده العظيم أعاد الحياة لدارس ربع الهدى القديم ، وإنه غيور على السنة التى لولاه لأبيحت لها كل المحارم . وقد شملت عدالته كل الرعية وعمَّها أمن واسع وقَى الناس لدغ الأفاعى الشرِّيرة ، حتى لأصبح ثغر الأرض الحربى سوقًا آمنة ، وأصبحت المآسد المخيفة بأسدها مرعى آمنا للنوق الحوامل ، وحمى الأرض جميعها - حماه الله - من سود الدواهى الغاشمة . ونلتقى بأخرة فى العصر بمحمد بن حنبل البوحسنى المتوفى سنة ١٣٠٢ هـ/١٨٨٥ م وقد أكثر من مديح الشيخ سيديًّا ، ومن قوله فيه بإحدى مدائحه[٤] :

شيخٌ سَناهُ وصيتُه ونداهُ مـ ... ـلْءُ الأيدِ والأبصار والآذانِ
شَيْخٌ تَجرَّدَ للجميل فَدَأْبُهُ ... نَفْعُ الأنام وطاعةُ الرَّحْمَن
ولنعمَ مرتادُ الأرامل أنتمُ ... والشُّعْثِ والأيتام والضِّيفانِ
ولأنت أكرمُ ما حوتْ أقطارُها ... بل ما عليه تعاقبَ الملوانِ
آلى الزمانُ أَلِيَّةً مبرورةً ... أن لا يكون من الورَى لك ثانى

وابن حنبل يقول عن الشيخ سيديًّا إن نداه أوجوده ملء الأيدى وسناه أو ضوءه ملء الأبصار وصيته ملء الآذان ، وإنه تجرد لصنع الجميل فعادته نفع الناس بكرمه الفيَّاض وعبادة الرحمن ونسكه ، والأرامل ترتاد منزله وتتلمسه ، وكذلك أبناء السبيل الشعث المغبَّرُون والأيتام والضيوف الكثيرون . ويقول له إنك أكرم من احتوته أقطار الأرض وتعاقب عليه الليل والنهار . وأقسم الزمان قسما مبرورًا صادقًا أن ليس لك فى الناس ثان يبلغ مبلغك . ونتوقف قليلا للحديث عن ثلاثة من شعراء المديح .

---

(١) الوسيط فى تراجم أدباء شنقيط ص ٥٣ .
(٢) عافى : دارس .
(٣) الأراقم : الأفاعى .
(٤) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٢٦٨ .

## ابن[1] رازكه

هو عبد الله بن محمد بن القاضى العلوى عبد الله المعروف باسم ابن رازكَة ، وهى أمه ، كان جده قاضى البراكنة الحسانيين ، ولد لأبيه فى أرض القبلة جنوبى موريتانيا ، وبها منشؤه ، وطمحت نفسه إلى التزود من العلوم ورحل فى تلقّيها إلى شيوخها الأوائل حتى أتقن العربية والبيان والمنطق والهندسة كما أتقن الفقه والعلوم الإسلامية مما أتاح له أن يصبح قاضيا بموريتانيا ، وكان كثير الأسفار من القبلة موطنه إلى مكناسة فى المغرب الأقصى عاصمة السلطان العلوى النابه إسماعيل ( ١٠٨٢ هـ/١٦٧٢ م - ١١٣٩ هـ/١٧٢٧ م ) وتوثقت عرى الصداقة بينه وبين ابنه محمد وكان عالما وشاعرا وولاه أبوه السوس ، وأعجب بابن رازكه ووسع له فى مجالسه كلما وفد عليه ، وأغدق عليه كثيرا من عطاياه ، إذ أهداه مكتبة نفيسة من كتب العلوم الإسلامية ومن دواوين الشعر العربى ، ولا ريب فى أنه كان لها أعمق الأثر فى ثقافة قبيلة ابن رازكه وثقافة موريتانيا عامة ، وأنشد الشنقيطى قصيدتين لابن رازكه فى مديح الأمير محمد بن إسماعيل وفى أولاها يقول :

فَتًى يستقلُّ اَلبحرَ جودُ بَنانِهِ ... على حالة استكثارِ حاتمِ الرَّشْحا
وآياتُ علمِ أخمدَ الجهلَ نورُها ... وغاياتُ جِدٍّ ليس تَطْلابُها مَزْحا
ورأىٌ يُريه اليومَ ما فى حَشَا غَدٍ ... ويكشفُ عنه من دُجَى ليلهِ جُنْحَا[2]
وحَزْمٌ يهزُّ الراسياتِ ثباتُهُ ... وعَزْمٌ يحاكى الزَّندَ ماضيُّه قَدْحا[3]
ولم تُذْعن الأعداءُ مَحْضَ مودَّةٍ ... إليه ولكنْ إنما كرهوا القَرْحا[4]
مواصِلةٌ حبلَ الجهادِ جيادُهُ ... ووقفٌ على غَزْو العدا عَدْوُها ضَبْحا[5]
فلا زلتَ للإسلام عيدًا منغّصًا ... تنغّصُ حُسْناهُ السَّعانين والفِصْحا

وهو يصف الأمير محمد بن إسماعيل بالكرم الفياض حتى ليرى البحر جود بنانه قليلا بالنسبة إلى أعطياته على حين كان حاتم المشهور بجوده يستكثر الرشح ، مع دلائل علم راسخ أطفأ نوره الجهل فى المغرب الأقصى إلى غير رجعة ، ومع غايات جد جادة إلى أقصى حد ، ومع رأى يبصّره بما يأتى به الغد ، ويكشف له ما قد يكون حوله من ظلمات ، ومع حزم ثابت ثبوت الراسيات وعزم يحاكى سيفُه الماضى الزندَ بشراره المميت ، مما جعل الأعداء تذعن له وتذل خشية ما ينزل بها من القرح والجراح ، وإن جياده لتواصل الجهاد والعَدْو فى غزو الأعداء عدوا شديدا . ويدعو أن يظل محمد بن إسماعيل عيدا بهيجا للإسلام ومنغصا لأعياد

(١) انظر فى ترجمة ابن رازكه الوسيط للشنقيطى ص ١ - ٢٤ ، وص ٣٩٧ والشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٤٧ ، ٢٢٩ .
(٢) جنح الدجى هنا : جانبه .
(٣) الماضى : السيف القاطع . قدح الزند : ضرب حجريه بعضهما ببعض لاستخراج النار منه .
(٤) القرح : الجرح والهزيمة .
(٥) ضبحا : عدوا شديدا .

النصارى مثل عيد الشعانين الذى يسبق عيد الفصح بأسبوع . ويمدحه ابن رازكه فى القصيدة الثانية بمثل قوله :

هـو الـوارثُ الفضلَ النَّبيئيَّ خالصًا ... من العلم والعليا ومن طيبِ مَحْتِدِ[1]
ثمالُ اليتـامى والأيـامَى مُوَكَّلٌ ... بتفريج غَمَّـاء الشَّجِى المتنكِّـدِ[2]
أغرُّ المُحَيَّا طاهـرُ البشـرِ طاهـرُ الـ ... سَّجا يا كريمُ اليـومِ والأمْس والغَد
حميدُ المساعى سار فى الرُّتَبِ العُـلا ... من المجـد سَيْرَ السـابق المتفرِّد
حَوَى شَرَف العلـم الرفيـع عِمادُهُ ... إلى شَرَف البيت الكريـمِ المصمَّدِ[3]

ويقول لمحمد بن إسماعيل فى وصف تلك القصيدة :

عَروبٌ عـروسُ الـزىِّ أندلسيَّـةٌ ... من الأدب الغَضِّ الذى روضُه نَدِى

وهو يمدحه بأنه علوى ورث الفضل النبوى من العلم والعلياء وشرف الأصل والنسب ، ويقول إنه غوث اليتامى والأيامى من النساء غير المتزوجات ، مفرج غَمِّ الحزين المملوء نكدا وهمًا ، أغر المحيا أى سمح الوجه مستبشر دائما طاهر الأخلاق والطباع كريم كرما متصلا فى أمسه ويومه وغده ، كل مساعيه تجلب له الحمد والثناء ، وإنه ليسير فى منازل المجد سير السابق المتفرد ، وقد تحلَّى بشرف العلم الرفيع مع شرف بيت النبوة الكريم وإنه ليقصده الناس لتحقيق حوائجهم وأمانيهم . ويذكر ابن رازكه فىأواخر قصيدته أنها عروس عربية جميلة من الشعر الناضر ، ويقول إنها أندلسية كشعر الأندلسيين المشهور بالروعة . ونشعر عند شعراء موريتانيا بهذه الصلة الوثيقة التى تربطهم بالأندلسيين لقربهم من الأندلس فردوس العرب المفقود الذى أبلى فيه أجدادهم من الصنهاجيين بلاء عظيما أيام المرابطين . ونكتفى بما أسلفنا من مديح بديع لابن رازكَه ، فقد اتضح لنا صوته وجمال شعره وما يتصف به من جزالة ونصاعة ، وسنعود إليه فى حديثنا عن الرثاء . توفى سنة ١١٤٤ هـ/١٧٣٢ م .

### محمد[4] اليدالى الديمانى

من قبيلة ديمان إمام فى علوم الشريعة إذ له فيها تفسير قيم للقرآن الكريم سماه – كما أسلفنا – « الذهب الإبريز على كتاب الله العزيز » وهو فى مجلدين وله مصنفات أخرى فى سيرة الرسول ﷺ وآداب السلوك وتاريخ الزوايا المشغوف أهلها بالعلم وتعمير الأرض ، وله كتاب فى مناقب وليهم : ناصر الدين صاحب الفتوحات فى السنغال . وهو إلى ذلك كان شاعرا فذا من شعراء موريتانيا ، وكان صديقًا للقاضى ابن رازكه ، وفيه يقول :

---

(١) محتد : أصل .
(٢) ثمال: غوث . الأيامى هنا : النساء غير المتزوجات .
(٣) المصمد : المقصود لقضاء الحوائج .
(٤) انظر فى ترجمة اليدالى وشعره كتاب الوسيط ص ٢٢٣ والشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٤٩ ، ٢٣١ .

قاضى القُضاةِ سراجٌ لسُدْفة الجهل جالى[1]
وسيفُ حَقٍّ على أهـ ـل الزيـغ والإعتزال
بـه العلـومُ تحلَّت أبهَى حُلًى وحِلال[2]
قد فـاز منها بما لم يَخطِرْ لإنسٍ يبـال
مقامـه فى الأعاريـ ـبِ والعقـائد عالى
وفى البلاغـة نظمًا وكلُّ سحرٍ حـلالِ
وفى العلـوم جميعا وفى علـوم الأوالى

واليدالى يمدح ابن رازكه بأنه سراج منير جلا ظلمة الجهل وبدَّدها وأنه سيف حق فى قضائه وأحكامه على أهل الزيغ والضلال وفى آرائه السنية ضد الاعتزال والمعتزلة ، وقد ازدانت به العلوم ولبست أحلى حُلِيِّها وأبهى حُللها وثيابها إذ ظفر منها بما لم يخطر بذهن إنسان ، ومقامه فى أعراب موريتانيا وفى العقائد عال رفيع، وبالمثل فى الشعر الساحر الخلاب وفى العلوم جميعا وعلوم الأوائل من هندسة وغير هندسة. وأجابه ابن رازكه بقصيدة بارعة نوه فيها بحلِّه للغوامض المشكلة فى الفقه وغير الفقه وأنه سيف أشعرى ماض فى ردوده على المعتزلة ، وكانت جماهير العلماء فى موريتانيا والمغرب جميعه تعتنق العقيدة الأشعرية. وكان اليدالى ينشد:

ليس من أخطأ الصوابَ بمُخْطٍ إنْ يَؤُبْ لا ولا عليه ملامَهْ
إنما المخطىء المسيءُ الذى إنْ وَضُحَ الحـقُّ لجَّ يَحْمى كلامـه

وهو يقول إن المخطىء هو من يتمادى فى خطئه ، أما من يرجع عنه فلا لوم عليه ولا تثريب ، إذ الرجوع إلى الحق فضيلة . ولليدالى فى مديح أحمد بن هيبة البركنى الحسانى قوله من قصيدة طويلة :

ورثتَ العـلا والعـزَّ والمجـدَ أحمدٌ وبذلَ النَّدَى عن هيبَ مفخرةِ العَصْرِ[3]
وإنك أسمـاهم علـوًّا ورفعـةً بمنطقة الجَـوْزا ومنطقـةِ البَدْرِ
وأيامكـم خُضْرٌ جَنَيْنَـا ثمارهـا بأيدى المُنَى ما بين أوراقها الخُضْرِ
وقاك إلهُ العَرْشِ يا أحمدُ الرَّدَى وجُنِّبْتَ أنـواعَ المكـاره والضُّرِّ
وأولاك ربُّ النـاس فى نَفْسِك المُنَى وآلِك والأولادِ والمـالِ والعُمْـرِ

وهو يقول لأحمد بن هيبة إن العلا والعز والمجد والجود ورثتها جميعا عن أبيك مفخرة العصر ، وإنك أسمى العشيرة البركنيّة رفعة وعلوًّا فى منطقة برج الجوزاء الصاعد فى السماء ومنطقة البدر المنير ، وأيامكم خضر سعيدة جنينا ثمارها بأيدى المنى من بين أعوادها وأوراقها

(١) سدفة : ظلمة .
(٢) حلال هنا : جمع حلة : ثوب ضاف .
(٣) الندى : الكرم والجود .

الخضر ، ويدعو له أن يقيه إله الكون الهلاك وينحّى عنه أنواع المكاره والضر ، ويعطيه ما يتمناه فى نفسه وآله وأولاده وماله وعمره. توفى سنة ١١٦٦ هـ/١٧٥٣ م وسنعود إليه فى حديثنا عن الفخر والرثاء .

## حُرَم[1] بن عبد الجليل العلوى

ويقال له أيضا حرمة الله وحرمة الرحمن ، ولد لأبيه فى أرض القبلة ، وبها نشأته ، وشغف بالعلوم اللغوية والإسلامية وطلبها عند شيوخ مدينتى شنقيط وآطار . وهو من تلاميذ المختار ابن بون فى العربية ، وكان يتقن مختلف العلوم ، وبه انتفع خلق كثير فى النحو والفقه ، وكان شاعرا يؤثر فى شعره الانسياب مع الطبع والسهولة فى اللفظ ، على نحو ما نرى فى قوله يمدح بُلاًّ الشقراوى الحسنى مشيدًا بعلمه وشعره :

إن بُلاًّ مشايخٌ حين تَعْرو ... شاراتٌ تفوت أزْكى العقولِ
من فنونٍ شتّى تُعَنّى المُعانى ... من عَويصِ المنقول والمعقولِ
يُسْعِفُ السائلين عنه بما فيـ ... ـه لذى غُلَّةٍ شفاءُ الغليلِ
إن يَسِرْ لانتساب مجدٍ رَعيلٌ ... كان بُلاًّ دليلَ ذاك الرَّعيلِ[2]
شعرُه مطربٌ حميَّاهُ تَسْرِى ... فى عظام الجليسِ مثلَ الشُّمُولِ[3]
ينفثُ الدرَّ واليواقيت إلا ... أن للدُّرِّ قسوةً فى التَّليلِ[4]

وحرم يقول إن بُلاًّ ليس شيخا واحدا بل هو عصبة من المشايخ وفضله يبدو حين تلم شاردات من العلوم لا تستطيع أزكى العقول أن تفقه عويص المنقول والمعقول فيها ، فسرعان ما يشفى ظمأ السائلين بحلّه لعويصها وتذليله ، وما من سابقين يسيرون فى ليل مدلهم إلى مجد إلا كان دليل هؤلاء السابقين ، وناهيك بشعره فهو شعر مطرب تسرى شدة تلاحينه فى عظام السامع سريان الخمر فى الجسد ، وإنه ليلفظ الدرر واليواقيت الممتعة لقارئه دون أى عناء . ويقول فى مدح شعر الشويعر الحسنى :

معنـاهُ راقٍ راقَ حُسْنًا لفظُه ... للهِ فكـرٌ جـال فيـه ومِقْوَلُ[5]
يُسدِى ويُلْحِم فى البلاغة حائكًا ... حُلَلاً يَتِيهُ بهـا القريض ويَرْفُلُ[6]

(١) انظر فى ترجمة حرم وشعره كتاب الوسيط ص٢٤ والشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٥٨ ، ٢٣٦ – ٢٣٧ .
(٢) الرعيل : السابقون فى الجماعة .
(٣) حميا : شدته وسورته . الشمول : الخمر .
(٤) التليل : العنق .
(٥) مقول : لسان .
(٦) يسدى من السدا وهو الخيوط طولا ، ويلحم : من اللحمة وهى الخيوط عرضا . ويسدى ويلحم أى ينسج . يرفل : يجر ثوبه متبخترا .

أغْناه عن تعب التعلُّـــم طَبْعُهُ  إن العَويصَ لـه يهـــونُ ويَسْهُلُ
إن البلاغة فى البليـــغ غريزةٌ  لا بالعـــلاج يناهـــا المتطفِّـــلُ
هل مثـــلُ أخلاق الكريـــم تخلُّقٌ  لا ، لا ، ولا كَحَلُ الجفُون تكحُّلُ[1]

وهو يقول إن معانى شعر الشويعر راقية وألفاظه رائقة ، ويشيد بفكره ولسانه ، ويقول إنه ينسج ويحوك فى شعره البليغ حللا يتيه بها الشعر عجبا ويجرُّها متبخترا ، وهو شاعر الطبع لا يتكلف فى شعره ، وعويصه يسهل عليه دون أى عناء . ويذكر أن بلاغة البليغ سليقة فيه وفطرة لا يوجدها التعلم ولا التكلف ، وفرق بعيد بين شعر الطبع وشعر التكلف والتصنع كالفرق بين الأخلاق الطبيعية والتخلق وكحل الجفون الطبيعى والتكحل ، وكأنه يعبر عن منهجه فى الشعر . توفى سنة ١٢٤٣هـ/١٨٢٨م وسنعود إليه فى شعر الفخر والحماسة .

## ٣

# شعراء الفخر والهجاء

### ( أ ) شعراء الفخر

الفخر فن شعرى قديم تغنى به الشاعر الجاهلى مصورا فيه مثاليته الخلقية من الشجاعة والكرم والنجدة والمروءة وما إلى ذلك من الصفات النبيلة ، كما تغنى بمكارم قبيلته ومحامدها وبأسها فى الحرب . وظل الشاعر العربى – بعد العصر الجاهلى – يفخر بأخلاقه وشيمه الرفيعة من الوفاء والحلم والصبر فى الشدائد والكرم ، ونما الشعر الحماسى فى الحروب الكثيرة التى اشتعلت بين العرب وأعدائهم على مر العصور . ونجده فى موريتانيا على ألسنة كثيرين ، فمن ذلك قول محمد اليدالى مفاخرا بقومه بنى ديمان الحسانيين[2] :

ونحن ديمانَ أقطابُ الرَّحَى وبَنُو  ديمـــانَ خيرُ بنى حَسَّانَ أديانـا[3]
نحن اكتسينا المعالى والعُلا حُللاً  حمـــرا ودُرًّا وياقوتـــًا ومَرْجـانـا
ونحن كنا على وَجْه العُلا غُرَرا  وفوق هـام النَّدى والعِزِّ تيجـانا[4]
وكانَ منزلُنا فوق السِّماك كما  كُنَّا على وجَنـات الدهـر خِيلانا[5]
حُزْنا المكارمَ والمجـد المؤثَّلَ والـ  ـعلياءَ من سالف الدَّهْـرِ إلى الآنا[6]

(١) تخلق الشخص : ظهوره بخلق لا ينطوى عليه . الكحل : سواد الجفون خلقة .
(٢) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣٤١ .
(٣) أقطاب الرحى : السيادة .
(٤) غررا جمع غرة: سادة مشهورين . الندى : الجود .
(٥) السماك : برج أو نجم – خيلان جمع خال : الحسنة على الوجنة .
(٦) المؤثل : الأصيل .

قلائدُ المجد فى أعناقنا نُظِمَتْ عِقْدًا وكنا لعَيْنِ الدهر إنْسانا[1]
لا يَبْلُغَنَّ مَدانا مَنْ يفاخرُنا فضلا وعلما وإيمانًا وإحسانا

يقول إننا قبيلة ديمان أقطاب السيادة وخير قبائل بنى حسان تقوى وصلاحا ، وقد اكتسينا حلل المعالى والعلا وحليهما من در وياقوت ومرجان ، وارتسمنا على وجه العُلا غررا بيضاء مشرقة وفوق رءوس الجود تيجانا ، وكان منزلنا فوق نجم السماك فى أعلى عليين ، وارتسمنا على وجنات الدهر خيلانا وحسنات ، وحزنا المكارم والمجد الأصيل والعلياء إلى اليوم . وقد نظمت فى أعناقنا قلائد المجد ، وكنا - ومازلنا - إنسان عين الدهر وجوهرته الباصرة ، ولا أحد ممن يفاخروننا يبلغ مدانا تقوى وعلما وفضلا وإحسانا . وكرر هذا الفخر فى قصيدة همزية . ونلتقى بعده بالمختار بن بون وسنخصه بترجمة ، ويقول حرم بن عبد الجليل الذى سبقت ترجمته مفاخرا بقومه أهل شنقيط وقد انتصروا فى حرب على أهل وادان[2]

سَمَا للمعالى مَنْ تقدَّم منهمُ ويَسْمُو على آثاره مَنْ تأخَّرا
مآثِرُهم حَلْىُ الزمان لو انَّه على صورة الإنسان كان مصوَّرا
وكم من فَتىً منهم يروقُك علمهُ ويهزم من أنجادِ وادانَ عَسْكرا
ويجعل فى إحدى يديه مهنَّدًا طَريرًا وفى الأخرى كتابا مطرَّرا[3]
يحبُّ الرَّدَى يوم الوَغَى وكأنَّه إذا ماتَ فيه لا يزال معمَّرَا

وهو يقول إن جميع الرجال فى قومه شبانا وشيبا يسمون للمعالى وقد كثرت مآثرهم ، وإن الزمان ليتحلَّى بها ، ولو كان إنسانا لاتضحت مصورة على صدره ، وإن فتيانهم لعلماء يروقك فى السلم علم كل فتى منهم ، بينما هو فى الحرب بطل يهزم عسكرا من أبناء وادان . وتراه يحمل فى إحدى يديه سيفًا ماضيًا وفى اليد الأخرى كتابًا بهيًّا . وإنه ليضحى بنفسه فى سبيل قبيلته ، حتى لكأنه يريد الموت فى الوغى من أجلها ، ومثله لا يموت بل يظل خالدا فى ذاكرة قومه . ويقول الأحول البوحسنى المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ/١٨٣٥ م فى الحروب التى وقعت بين قبيلته وبين العلويين إثر انتصار لهم فى بعض المواقع[4] :

همُ جَلبوا الحربَ العَوانَ فلم نزل نُبيدُ ونُقْصى منهمُ كلَّ جانبِ[5]
لدى مشهدٍ دارتْ رَحاهُ فجرَّعَتْ صَناديدهم حَتْفًا مريرَ المشاربِ[6]
وولَّوا سراعًا مدبرين كأنهم بُغاثٌ تهاوَى من صقورٍ دوارب[7]
وقَهْرًا طردناهم وخُضْنا حِماهمُ وهِجْنا همومَ المعْولات النوادبِ

(١) إنسان العين : جوهرتها الباصرة .
(٢) الوسيط ص ٢٩ .
(٣) طريرا : ماضيا . مطررا : عليه بهاء ورونق .
(٤) الوسيط ص ٣١٠ .
(٥) الحرب العوان : المتجددة مرة بعد مرة .
(٦) دارت رحى الحرب : نشبت وحميت . صناديدهم جمع صنديد : شجاع مفرط فى الشجاعة .
(٧) بغاث : طائر صغير . تهاوى : طار مسرعا .

ألا إننا نَحْمِى الحِمىَ ونحوطُه ونزدادُ صبرا تحت كلِّ النـــوائبِ
ومَنْ شاءَ فلينظرْ عواقبَ معشَرٍ جَنَى حَرْبنا يَزْجُرْهُ شُؤْمُ العـواقبِ

و يقول إن العلويين هم الذين جلبوا هذه الحرب التى لا تزال تتجدد حربا بعد حرب ، ولا نزال نقتل فيهم ونقصى بعض كتائبهم فى مواقع حامية الوطيس جرَّعت شجعانهم موتا مريرا ، فولَّوا مدبرين كأنهم بغاث طار مسرعا بعضه إثر بعض خوفا من صقور مدربة ، وقد هزمناهم قهرا وتغلغلنا فى حماهم وهجنا نساءهم وأعولن يندبنهم . وإننا لنحمى حمانا ونقيه ، وتزيدنا الحروب صبرا وشجاعة ، ومَنْ شاء فلينظر عواقب من نحاربهم ومدى ما جنته الحرب عليهم ، وإذن يزدجر لما يرى بعينه من شؤم العواقب . ويقول محمد بن الطلبة اليعقوبى المتوفى سنة ١٢٧٢ هـ/١٨٥٦ م مفاخرا ببنى عامر[١] :

وبنو عامرٍ همُ القوم كلُّ الـ ـقوم والـرَّأسُ والذُّرى والـرَّوابى
وبهـاليـلُ كالمصـابيح زُهْـرٌ من كهـولٍ جَحاجحٍ وشبابِ[٢]
دينهُم حفظُ دينهـم وعُلاهم وعلـومِ الكتـاب والآدابِ
لا همُ يَفْرحـون للخـير إن مَـ ـسَّ ولا يَجْزعون عند المصـابِ
صحب اللّهُ جمعهـم وحباهـم بالرِّضـا عنهمُ وحُسْنِ المـآبِ
وسَقَى اللّهُ حيث أمّـوا وساروا من حَيَا المزن مُدْجِنات الذِّهابِ[٣]

وبنو عامر – فى رأى محمد بن الطلبة – هم القوم ولا قوم سواهم وهم الرأس والقمم والكثبان العالية ، وهم سادة مشرقون كالمصابيح من كهول كرام وشباب ، دينهم حفظ عقيدتهم وعلاهم وعلومِ القرآن الكريم والآداب ، لا يفرحون حين يصيبهم الخير ولا يجزعون حين تنزل بهم مصيبة ، ويدعو لله لهم أن يرضى عنهم فى اجتماعهم وتفرقهم وعند مآبهم وعودتهم ويسقى منازلهم ومسيرتهم من غيث السحب المتراكمة العظيمة . ويقول باب بن بيب المتوفى سنة ١٢٧٦ هـ/١٨٦٠ م مفتخرا[٤] .

ألوى بصبرك لاعجُ الأشـواقِ إن الأحبَّـة آذنـوا بفـراق[٥]
يا مَنْ يسابقنى ويطلب عَثْرَتى إنى – لَعْمرُك – سابقُ السُّبَّاقِ[٦]
وإذا المسـائل أحجمتْ وتمنَّعتْ وأبتْ مشاكلُها على الحُـذَّاقِ[٧]

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣٤٦ .
(٢) بهاليل : سادة كرام ، ومثلها جحاجح .
(٣) حيا المزن: مطر السحاب. الذهاب جمع ذِهبة: السحابة.
(٤) الوسيط ص ٣٦ .
(٥) ألوى : ذهب . لاعج : واقد . آذنوا : أعلموا .
(٦) عثرتى : خطئى .
(٧) أحجمت : نكصت وتمنعت .

أعملتُ سَيْفَ الفكر نحو عَوِيصها فحَنتْ علىَّ خواضعَ الأعنـاقِ[1]
فتبـــوح لى بسرائـرٍ مكتومـــةٍ حتى عن الأسطـــار والأوراق

وهو يقول إن واقد الأشواق فى صدره ذهب بصبره ، فإن الأحبة على وشك الفراق . ويأخذ فى الفخر بنفسه ، فيقول لمن يسابقه وينافسه ويطلب عثرته وخطأه إنه سابق السباق ، وإن المسائل إذا استصعبت وتمنّعت مشاكلها على الحذاق فلم يستطيعوا لها حلا أعمل سيف فكره فى عويصها فجاءته خاضعة تبوح له بأسرارها المكتومة عن ظاهر المكتوب فى السطور والأوراق . ونتوقف للحديث عن شاعرين من شعراء الفخر .

## المختار[2] بن بون

ولد ونشأ فى منطقة تجكانت الموريتانية ، وتتلمذ للمختار بن حبيب وأخذ كل ما عنده ، وكان يتعثر فى أول أمره ، ثم فتح الله عليه واشتهر بعلمه وخاصة فى العربية وجاءه الطلاب من كل فج ، وسمعت به قبيلة إديقب اليعقوبية ، وهى من أهم قبائل الزوايا فى مدارسة العلوم ، فطلبت إليه أن ينزل بها ليأخذ عنه طلابها علم النحو وعلم الكلام أو التوحيد ، وكان لا يجارَى فيهما ، وأقام عندهم مدة ، ثم حدثت بينه وبينهم مناظرات فى بعض العلوم كان يقودها تلميذه محمد المجيدرى ومولود بن أحمد وعادوا إلى استسماحه ، مستشهدين بقوله تعالى على لسان إخوة يوسف : ﴿تاللّهِ لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين﴾ فأجابهم بما أجاب به يوسف إخوته ، إذ قال ﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾ . وعاد إلى موطنه وانثال عليه الطلاب ، وكان رفيقا بهم يجود لهم بما يملك ، وكثروا فرحل بهم إلى بئر فى أرض تجكانت ، فشرعوا يبنون الأخصاص لسكناهم ، وكان لا يشتغل نهارا ولا ليلا إلا بتعليمهم . وله فى النحو منظومة تسمى الاحمرار جمع فيها بين ما ذكره ابن مالك فى الألفية وكتابه التسهيل وطبعت فى مصر ، وله فى النحو أيضا مقدمة ألّفها – كما مرَّ بنا – للمبتدئين ، وتكونت له فى النحو مدرسة أهم تلاميذه فيها بُلاَّ الشقراوى جعلناها خاتمة حديثنا عن علماء العربية بموريتانيا . وله من قصيدة يعتب فيها على قبيلة إد يقب اليعقوبية وتلميذه محمد المجيدرى ويفاخر بما أسدى إليه وإلى أبنائها من علم العربية قائلا :

فلا تنكرونى آلَ يعقوبَ واذْكروا ليالىَ أجلو ما على النـــاسِ أظلما
وحين أُحلّى منكـــمُ كلَّ عاطـلٍ بِدُرِّى وأسقى باردى كلَّ أَهْيَما[3]

(١) حنت : مالت وعطفت .
(٢) انظر فى ترجمة المختار بن بون وشعره كتاب الوسيط ص ٢٧٧ والشعر والشعراء فى موريتانيا ص٣٤٢ .
(٣) الأهيم : العطشان عطشا شديدا .

وهو يقول لهم لا تنكرونى بعد ما قدمت لكم من جميل واذكروا حَلّى لطلابكم المشكلات التى استصعبت وانبهمت ، واذكروا ما زينت به من درر العلم أبناءكم وكيف أسقيتهم منه ما أطفئوا به ظمئهم إلى المعارف ، ويقول مفاخرا بقبيلته وقومه :

ونحن ركبٌ من الأشراف منتظمٌ ... أجلُّ ذا الخلق قدرا دون أدْنَانَا
نتلو كتابَ إلهِ العَرْش كلَّ مَسًا ... وكلَّ يومٍ ومَنْ نَلْقَى تُوقّانا
ومن تكنْ همَّةُ الأقدار نُصْرَتَه ... لم تقدرِ النـاسُ أن تُوهى لـه شانا
وهمَّةٌ دونها هـامُ السماء ومَنْ ... هِمَّتُهُ دونهـا هـامُ السَّما دَانـا[1]
وهَيْبَةٌ مُلِئَتْ منهـا القلوبُ فلو ... نظرتُ شَزْرًا إلى أقْصَى الوَرَى حَانا[2]
ولا يُنَهْنِهُنِى عن حاجـةٍ جـزعٌ ... ولا ألـينُ وإنْ ذو لُوثـةٍ لانـا[3]

وهو يفخر بقومه أو قبيلته فخرا مبالغا فيه إذ يجعل أعظم الناس قدرا دون أدنى شخص فيهم منزلة ومكانة ، ويقول إنهم مكبون على كتاب الله يتلونه مساء وكل يوم ، وينوه بشجاعتهم وأن القبائل تحذرهم وتتوقاهم ، ويذكر أن الأقدار دائما تنصرهم على أعدائهم ، ومن تنصره لا يستطيع أحد ولا قبيل أن يضعفا له شأنا وهم مهابون هيبة ملئت منها القلوب مخافة ، حتى إنه لو نظر إلى عدو مغضبا هلك خوفا وفزعا ، ولا يعتريه إزاء حاجة يريدها جزع ، وإنه صلب لا يلين ، إنما يلين الضعيف الواهن . توفى سنة ١٢٢٠ هـ/١٨٠٦ م وقبل بل قبل ذلك بسنوات .

## محمد[4] بن سيدىَّ الأَيْبِرِىّ

كان أبوه سيدىَّ جوادا جودا عظيما إذ كان غيثا مدرارا ، وكان عالما تتلمذ لحرم بن عبد الجليل وبذَّ أقرانه ، وشغف بالتصوف فشد رحاله إلى الشيخ المختار الكنتى الصوفى ولازمه ستة أشهر ، توفى عقبها ، فلازم ابنه محمدا حتى برع فى التصوف ومعرفة طريقه . ويقول الشنقيطى عن محمد بن سيدىَّ إنه نشأ فى نعمة عظيمة ورعاية من والده جسيمة ، ويقول إنه العلامة الأريب اللغوى الأديب ، ويتوسع فى ترجمته إلى أكثر من عشرين صفحة ، ينشد فيها طرائف شعره ، ومما أنشده قصيدة له يسخر فيها ممن يردِّدون موضوعات الشعر القديمة وخاصة الوقوف بالأطلال والبكاء بالديار ونعت المرأة والخمر ويعيب عليهم كثرة السرقات الشعرية . ومن قصائده قصيدة يدعو فيها للجهاد ضد أعداء الإسلام المغيرين على السواحل الإفريقية

(١) دانَ : عزَّ .
(٢) شزرا هنا : مغضبا . حان : هلك .
(٣) ينهنهنى : يكفُّنى – لوثة : ضعف وحمق .
(٤) انظر فى ترجمة محمد بن سيدىَّ الوسيط للشنقيطى ص٢٤٣ والشعر والشعراء فى موريتانيا ص٥٧، ١٨٩ .

المغربية ، وكأنه كان يُعِدُّ شباب قومه لمنازلة فرنسا قبل فرضها الحماية على موريتانيا سنة ١٣٢٠ هـ/١٩٠٣ م وفيها يفخر بشجاعة قومه وحمايتهم للإسلام قائلا :

وفتيانٍ يـرون الضَّيْمَ صابا ... وطعمَ الموت خُرْطوما عُقارا[١]
أحبُّوا المِلَّـــة البَيْضا فكانوا ... عليهـا من مُراودهـــا غَيـــارَا
بأيديهـــم مذرَّبـــةٌ طـــوالٌ ... تُرِى الأقـــران أعمارًا قِصارا[٢]
جموعٌ تهزم الأعداء قهرًا ... فتتركهم جَدِيسًا أو وَبـــارا[٣]
بنصر الله واثقـــةٌ يقينـــا ... فلا تخشى من الخلق الجِذارا
لهـــا إعـــلاءُ كِلْمتهِ مـرامٌ ... فلا غُنْمًا تـروم ولا افتخـــارا

وهو يقول إن شباب قومه فتيان أشداء يرون الذل مرا لا يطاق شرابه ، أما الموت فى ميدان الحروب فيرونه لذيذا لذة الخمر أو أعظم لذة . وقد أحبوا الدين الحنيف حتى إنهم ليغارون عليه غيرة العاشق على معشوقته ، وإنهم لشجعان بواسل بأيديهم سيوف ماضية ، تُرِى الأقران أن أعمارهم قصار بما تقطع من رقابهم ، وإنهم لجموع تعوَّدوا النصر على أعدائهم حتى ليبيدوهم عن آخرهم فيصبحوا فى عداد الأمم البائدة مثل جديس ووبار ، ودائما يثقون فى نصر الله لا يخشون أحدا ، وقَصْدهم إعلاء كلمة الله ودينه القويم دائما ، ولا غنما يريدون ولا افتخارا . ويعرض فى قصيدة طويلة مذاكرته لزملاء أدباء يقفون على مذاهب الفقهاء المختلفة ومذهبى الأشعرى وإمام الحرمين الجوينى ومنازع الفرق الصوفية وأقوال الخليل وسيبويه والكوفيين وغيرهم فى النحو ، ويتدارسون شعراء الجاهلية الستة المشهورين : امرأ القيس وزهيرا والنابغة وعلقمة وطرفة وعنترة ، والمرقشين الأكبر والأصغر والأعشيين : أعشى قيس وأعشى باهلة والأعميين : بشارا وأبا العلاء ، وأبا نواس والمتنبى . وهى وثيقة مهمة بما كان يتدارسه الشباب الموريتانى من العلوم والشعر والشعراء جاهليين وإسلاميين وعباسيين ، ثم يقول مفاخرًا بشمائله :

ومَنْ يَكُ راغبًا فى القرب منى ... يجـدنى دون مـــاء المُقْلتين
ومن يؤثرْ قِلاىَ فليس شيءٌ ... يواصلُ بينـــه أبـدا وبينى
ألاحظُ من خَليطى كلَّ زينٍ ... كما أُغْضِى لـه عن كـلِّ شَيْنِ
ولا أُصغى إلى العَوْراء حتى ... يُـرَى أنّى أصـــمُّ المِسْمعين[٤]
وما جهلُ الجهـول بمستفزّى ... ومالى بالدنيَّـــة من يَدَيْـن

(١) الضيم : الهوان . الصاب : المر . الخرطوم والعقار : الخمر .
(٢) مذربة : من ذرب السيف والرمح : صار ماضيا .
(٣) جديس ووبار : قبيلتان من العرب البائدة .
(٤) العوراء : الكلمة السيئة . المسمعين مثنى مسمع : الأذن .

وهو يفخر بأن من يوده يجده أقرب إليه من ماء عينيه ، ومن يؤثر بغضه يقطع كل صلة تصله به ، ولا أرى من صديقى إلا ما يزينه وأتغاضى عن كل ما يشينه ، ولا أصغى إلى كلمة سيئة تقال عن أحد ، وأرى – حين تقال – كأنى أصم لا أسمع شيئا ، ولا تستفزنى حماقة الأحمق ولا أقترف عملا سيئا ولا خسيسا ذميما . وكان الشعر بتدفق على لسانه ، توفى سنة ١٢٨٦ هـ/١٨٧٠ م .

(ب) شعراء الهجاء

الهجاء فن قديم منذ الجاهلية كانوا يصبونه على خصومهم وخصوم قبائلهم ، ولم يكد يسلم منه شريف فى الجاهلية ، لكثرة ما كان بين القبائل من حروب ومنافسات . وبمقدار شرف القبيلة وأمجادها ومآثر سادتها وفرسانها ومناقبهم يكون هجاؤها وما ينزل بها من سهامه ، واتصل هذا الهجاء فى الإسلام وطوال العصور ، والمظنون أنه كان كثيرا فى موريتانيا بسبب كثرة الحروب بين عشائرها وقبائلها واستخدامه سلاحا يغض من شأن القبيلة المعادية وسادتها وشيوخها . ويقول الدكتور محمد المختار إنه تجنب أن يكثر منه فى كتابه الشعر والشعراء فى موريتانيا خوفا من إثارة الحفيظة فى المجتمع الموريتانى المعاصر ولم يصرح بذلك الشنقيطى فى كتابه الوسيط فى تراجم أدباء شنقيط ، غير أنه – فيما يبدو – كان يرى رأى الدكتور محمد المختار ، ولذلك لم يأت منه إلا بأمثلة قليلة ، حتى عند شاعر هجَّاء كبير من شعراء الجيل الأول فى صدر القرن الثانى عشر الهجرى هو المصطفى بن أبى محمد المشهور بلقب بوفمين[1] المجلسى ، يقول : « كان هجاء ما نجا منه أحد » ثم يذكر أنه هجا إيدا بلحسن بقصيدة طنانة مطلعها :

أيحسب أن لا يـزأر الأسَدُ الوَرْدُ ... ذئابٌ عَوَتْ لمـا تغافلتِ الأُسْدُ[2]

ومنها :

وعقلُ الذى منهـم يَشُدُّ عمامـةً ... كعقل الذى منهم يُشَدُّ له المَهْدُ[3]

ولا يضيف إليه أبياتا أخرى من القصيدة ، ويذكر الشنقيطى أنه نزل يوما عند قبيلة إنتاب فى موضع يقال له إنجول فلم يكرموه ولا اكترثوا به فقال يهجوهم :

دهرُ الدهارير لا أقمتُ فيه لدى ... إنتابَ يومًا ولا بِقربِ إنجولِ[4]
يومُ الإقامة فيهم خلتُه ظمأً ... يومُ القيامة إذ يحكيه فى الطول
حتى تذكرتُ أنَّ النـاس قاطبةً ... إذَنْ تُسـألُ وأنـى غيرُ مسئولِ

(١) انظر ترجمته عند الشنقيطى ص ٣٤٨ .
(٢) الورد : الأشقر .
(٣) الذى يشد عمامة : الشيخ .
(٤) دهر الدهاهير : أول الدهر فى الزمن الماضى .

وهو يقول إنه لن يقيم مدى الدهر عند قبيلة إتتاب ومنازلها فى إنجول ، وقد أقام لديهم يوما خاله لطوله – وقد ظمىء فيه ظمئا شديدا – يوم القيامة ، وظنّ أن الناس ذهبت تُسْأل وبقى وحده . وقال فى إدْوَداى إحدى عشائر بنى ديمان – وقد نزل عندها – يهجوها :

يا رُبَّ ليلٍ بهيمِ الّيلِ داجٍ ... قد بِتُّ فى ضَيْعةٍ لدى إدْوداجِ[1]

حتى إذا ما دنا الإصباحُ نبَّهنى ... وَغْدٌ على لقمةٍ فى قَعْرِ مَجَّاجِ

وقلب الياء من قبيلة إدْوداج جيما محاكاة لبعض لغات العرب فى هذا القلب ، وهو يقول إنه بات فى ليل بهيم مظلم أشد الظلام بضيعة عند إدوداى ، حتى إذا اقترب الصباح نبهه وغد لئيم على لقمة غير سائغة فى قعر إناء يَمُجُّ ما فيه ويلفظه لسوئه .

ويسوق الشنقيطى للمأمون اليعقوبى المتوفى سنة ١٢٣٨ هـ/١٨٢٣ م مقطوعة من هجائه للمختار بن بون حين وقع الشقاق بين المختار وعصابة البعقوبيين وصاروا جميعا يدًا واحدة عليه كما مرَّ فى ترجمته ، وله يقول موهنًا علمه بمنطق أرسطو وبأحاديث الرسول[2] ﷺ :

أكثرتَ حَزَّك لو دريتَ مَفْصِلَهُ ... فادْرِ المفاصلَ قبل الحزِّ واسْتَفِقِ[3]

ما الدينُ إلا الذى تَسْعَى لتوهنَهُ ... آىُ النبىِّ وآثارُ الهدى العَبِقِ[4]

لا كلُّ خَبْطٍ عن اليونان مبتدَعٍ ... قد سُنَّ بين أصول الدين مُخْتَلَقِ

تَحْمِى قواعدَ رَسْطا ليسَ تحسبها ... دينًا لك الويلُ نَبِّهناك فاستفقِ

إن كنتَ تورد نَسْخًا أو معارضةً ... لذِى الأحاديثِ فاذكرْ ما ترى وسُقِ

وإن تكن قاصرا عن كونها ثبَتَتْ ... فيما حوى شَرْحَه الحُفَّاظُ فى الورقِ

فاعرفْ مقامك فى دَرْكِ العلوم ولا ... تعرضْ لمن خاض فيها شاسع الشُّقَقِ[5]

وهو يصفه بأنه أكثر الحزّ ولايصيب المفصل ، وينصحه أن يعرف المفاصل حتى يحسن الحزّ، ويقول له ما الدين إلاالذى تسعى فى توهينه من معجزات الرسول وآثار هداه العطر لا هذا المنطق المبتدع عن اليونان والذى تزجُّون به فى أصول الدين ودراساته ، لذلك تدافعون عن قواعد أرسطاليس المنطقية وتتخذونها دينا لكم وشعارا . ثم يقول إن كانت الأحاديث التى تذكرها وتدرسها للطلاب مكتوبة أو مروية فاذكر ذلك وسُقْ أسانيدها ، وإن كنت تعجز عن إثبات سندها فى كتب الأحاديث وشروحها فاعرف مقامك فى معرفة العلوم ولا تتعرض لمن تعمقها ووقف على نواحيها وجوانبها المختلفة . والمأمون تجاوز حده فى هذا الهجاء فلم يكن المختار بن بون ضعيف الأحاديث ولا كان واهن الدين ، وإعجابُه بمنطق أرسطو لايشينه ، فقد كانت دراسته عامة فى جميع البيئات الإسلامية . ويصفه الشنقيطى فى ترجمته بأنه « تاج

(١) بهيم : مظلم . الّيل : شديد الظلمة . داج : معتم .
(٢) الشنقيطى ص ٢١٧ .
(٣) المفصل : ملتقى كل عظمين فى الجسد .
(٤) العبق : العطر .
(٥) الشقق : جمع شقة : الناحية يريد أنه متوسع فى العلوم .

العلماء.. ولايوجد عالم بعده إلاوله عليه الفضل الجزيل بما استفاد من مصنفاته ، وتلقى من مسنداته» .

## ٤

### شعراء الرثاء

للرثاء عند العرب –منذ الجاهلية– ثلاث صور : صورة الندب وبكاء الميت والنواح عليه من ذوى القربى، وصورة التأبين ورسم فضائل الميت لبيان خسارة القبيلة أوالمجتمع فيه ، وصورة العزاء وبيان أن الموت كأس يتجرعه البشر جميعا ، فالكل ميت ولا بقاء لأحد ، وكثيرا ما تختلط هذه الصور فى المرثية الواحدة. وفى كل عصر وفى كل قطر تلقانا عشرات المراثى بل أحيانا مئاتها ، وهى كثيرة فى موريتانيا ، وقد عرض منها المرحوم الشنقيطى والدكتور محمد المختار عشرات ، ونعرض بعض أمثلة منها ، من ذلك قول ابن رازكه يرثى أعمر آكجيل التروزى[1] :

هو الموت عَضْبٌ لا تخون مضاربُهْ ... وحَوْضُ زُعافٍ كلُّ من عاش شاربُهْ[2]
وما الناس إلا واردوه فسابقٌ ... إليه ومسبوقٌ تَخُبُّ نَجائبُه[3]
يحبُّ الفتى إدراكَ ما هو راغبٌ ... ويدركه – لابُدَّ – ما هو راهِبُهْ
وكم لابسٍ ثوبَ الحياة فجاءَه ... على فَجْأَةٍ عادٍ من الموت سالبُه
وما صان حَبْرًا علمُه وكتابُه ... ولا مَلكا أعلامُه وكتائبُه

وهو يبدأ مرثيته بالعزاء ، فالموت سيف مصلت على رقبة كل إنسان ، لا تخونه مضاربه ، وحوض سم قاتل ، كلٌ من عاش على ظهر الدنيا لابد شاربه ، والناس جميعا واردوه ، سابق إليه ومسبوق تعدو به ركائبه . ويتعلق الإنسان فى دنياه بما يرغب فى تحقيقه ويدركه الموت الذى يرهبه ، وكم من لابس لثوب الحياة يفجؤه عادٍ من الموت يسلبه عنه ويخلعه . ولا يصون العالم الجليل منه علمه وكتبه ، ولا يصون الملك راياته وكتائبه . ويرثى القاضى أحمد بن يوسف البوحسنى ويقول فيه مؤبنا[4] :

فتانا ومفتينا المصيبُ وشَيْخنا ... ونِبْراسُنا فيما يهمّ ويُسْدِفُ[5]
بصيرٌ بحلِّ المشكلات كأنما ... يُكاشَفُ عن أسرارها ثم يكشفُ
تملَّك أطراف القضاءِ وفِقْهَهُ ... وما هو إلا مالكٌ أو مطرَّفُ[6]

(١) الوسيط للشنقيطى ص ١٥ .
(٢) عضب : سيف قاطع . زعاف : سم قاتل .
(٣) تخبّ : تعدو . نجائبه : ركائبه .
(٤) الوسيط ص ١٨ .
(٥) نبراس : مصباح . يسدف : يظلم .
(٦) مالك : الإمام مالك بن أنس . مطرف : قاضى صنعاء المشهور .

وهو يصفه بأنه المفتى المصيب والمصباح الذى يضيء ظلمات المشكلات العلمية ، وكأنما يُكْشَفُ له أسرارها ويكشفها للناس ، وقد امتلك فتاوى القضاء وفقهه فى أحكامه حتى لكأنه مالك مفتى المدينة أو مطرف قاضى صنعاء . ويقول محمد اليدالى الذى مرت ترجمته مؤبنا المختار بن الفاضل[1] :

لهفى على لَوْذَعِيٍّ ذى نَدًى وتُقًى ... وهيبةٍ تملأ الأفكارَ والحدَقا[2]
وذى معارفَ ربَّانيَّةٍ وهُدًى ... وهمةٍ علتِ العَيُّوقَ والأفقا[3]
علْمُ الحقيقةِ والشريعة اجتمعا ... له فأضْحَى يُرَبِّى مَنْ به التحقا
وبحرُ جودٍ وعلمٍ زاخرٍ وإذا ... ما مُعْتفوه أتوه فاض واندفقا[4]
شِعارُه البِرُّ والتقوى ودَيْدَنُهُ ... رضا الإله ، خديمُ الضيف إن طرقا[5]

واليدالى يتحسر على موت ابن الفاضل ويقول إنه حاد الذكاء كريم صالح ، تملأ هيبته العيون والأذهان ، متصوف له معارف إلهية وهدى وعزيمة تعلو الأفق والنجوم ، وقد اجتمع فيه علم الشريعة والحقيقة الصوفية ، وبهما كان يربى تلاميذه ، وهو بحر زاخر للعلم والجود . وإذا ما أتاه سائلوه فاض عليهم بحر جوده وعلمه وتدفق من كل جانب ، شعاره الإحسان والتقوى ودأبه رضا الإله ، وإن ألم به ضيف كان خادمه : فرط جود وكرم . ويقول حرم بن عبد الجليل فى رثاء مولود بن أجفغ اليعقوبى[6] :

أتنعون مولودًا وما انقضَّ كوكبٌ ... ولا فارق النورُ الغزالةَ والبَدْرَا[7]
ولا زُلْزلتْ زِلزالَها الأرضُ يَوْمَه ... وما أبدتِ الأشراطُ آياتها الكبرى[8]
وما شغل الناسَ البُكا عن أمورهم ... كأنَّ صروف الدَّهر ما أحدثتْ أمرا[9]
لقد غَيَّبَتْ مَنْ غابَ عند مغيبِهِ ... فواضلُ شَتَّى لا نُطيق لها حَصْرا
وطُوبَى لقبرٍ أودعوه عظامَه ... فيا ليت أنِّى كان صدرى له قبرا

وحرم يندب صديقه مولودًا ويتفجَّع عليه ويبلغ من حزنه أنه يعجب كيف لم ينقضّ كوكب ولا فارق النور الشمس والقمر ولا زُلزلت الأرض ولا أبدت الساعة أشراطها وعلاماتها الكبرى جزعا على موت مولود ، كما يعجب أن الناس لم يشغلهم البكا على الميت العظيم عن شئونهم ، كأن صروف الدهر ونوائبه ما أحدثت شيئا ، مع أنها غيبتْ من لا يستطيع أحد

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٢٩٤ .
(٢) لوذعى : عالم ذكى . ندى : كرم .
(٣) العيوق : نجم .
(٤) معتفوه : سائلوه وطالبو جوده .
(٥) ديدنه : دأبه وعادته .
(٦) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٢٩٦ .
(٧) الغزالة : الشمس .
(٨) الأشراط : علامات الساعة .
(٩) صروف الدهر : خطوبه ونوائبه .

إحصاء فواضله ، وطوبى لقبر أودعوه عظامه ، ويتمنى أن لو كان صدره له قبرا ، وهو بيت رائع . ويقول محمد العلوى المتوفى سنة ١٢٦٤ هـ/١٨٤٨ م – وكان شيخ طريقة وعالما فى الفقه والعربية والبلاغة – راثيا الشيخ محمدا الحافظ العلوى قائلا[١] :

سهرتْ جفونُك والمصاب مسهِّدُ ... يرثـى لليلتك السليـمُ الأرمَدُ[٢]
ورَثتْ لك الخنساءُ ، بعدُ متمِّمٌ ... ورثى لبيدٌ يوم فارقَ أربَدا
لمصيبةٍ صَدمتْ فؤادى صَدْمةً ... كادتْ بناتُ الجَوْف منها تَصْعَدُ
وجرى الدموعُ على الخدود كأنها ... نظمٌ جَرى من سِلْكه متبدِّدُ
وتصدَّعتْ كِبدى لهـا وكأنمـا ... بجوانحى منهـا حريـقٌ موقَدُ
وإذا بكيتُ شَجًى عليه فإنه ... تبكى وتندبُـه جمـوعٌ حُفَّدُ[٣]
وبكى عليـهِ ليلُـه ونهـاره ... والصَّوْمُ يبكى والتهجُّد يَرْعُدُ
وبكتْ بقاعٌ كان يعبـدُ ربَّـه ... فيهـا فيركـع ما يشـاء ويسجدُ

وهو يقول إنه لم يغمض له جفن حين سمع المصاب ، وكأنما كل ندب وكل تفجع فى ميت كان فيه ، حتى لكأنه لُدغ مرات، وكأن تفجع الخنساء على أخيها صخر ، وندب متمم لأخيه مالك بن نويرة ، وبكاء لبيد لأخيه أربد، كل ذلك كان رثاءًا حارًّا للمصيبة التى نزلت به وصدمته صدمة كادت أمعاؤه منها تصعد، وجرت دموعه على خدوده كأنها سلك ، تبددت حبَّاتُه ، وتشققت كبده ، وكأنما فى جوانحه حريق موقد . ويقول إن الجموع من حوله تبكيه ، ويبكى عليه ليله ونهاره ، وصومه نهارا وتهجده ليلا ، ويستمر يذكر أن كل شىء يبكيه ، تبكيه صلاته ووضوءه ومسجده والكتب والأقلام والدواة والمصحف وبقاع الحرمين الطاهرة ويعددها مكانا مكانا ، ثم يقول – كما فى البيت الأخير – إنه عَبد ربه فيها وركع وسجد له طويلا . والمرثية بديعة . ولمحمدو بن محمدى العلوى يرثى الشيخ مولود فال منشدا[٤] :

ما لراجى الخلودِ نَيْلُ الخلودِ ... إنَّ وِردَ المنـونِ حَتْمُ الـوورودِ
أتطيبُ الحياة والشيخُ أمسى ... غَيَّبتْه مغيِّبـاتُ اللُّحـودِ
إنَّ مالى من اصطبارٍ تولَّى ... إذ تَوَلَّى إنسـانُ عينِ الوجـودِ
طودُ علمٍ يَنْحُوه كلُّ مُريدٍ ... من حِمـاه يفـرُّ كلُّ مَرِيدِ[٥]
وإذا سُدَّ بابُ علمٍ عويصٍ ... كان مفتـاحَ بابـه المسدودِ
عَلِم الأصـلَ والفـروعَ إلى أنْ ... ليس فى العلـم يُبْتَغَى من مزيـد

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣٠١ .
(٢) السليم : الملدوغ . الأرمد : من أصاب عينه الرمد .
(٣) حفد : حاشدة .
(٤) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣١١ .
(٥) مريد : شيطان .

وهو يقول إن الخلود لا يناله أحد ، إذ كلٌّ وارد على حوض الموت مسلم روحه إلى ربه ، ويقول إن الحياة أصبحت لا تطيب وقد مات الشيخ وغيَّبته اللحود ، وقد تولَّى عنى صبرى إذ فارقنى إنسان عين الوجود ، وهى مبالغة واضحة . ويذكر أنه طود علم كان يؤمه مريدون كثيرون ، ومن حماه وتقاه يفر الشيطان المريد ، وإذا سُدَّ باب علم عويص معقد كان مفتاح بابه المسدود فما يلبث أن يفتح على مصاريعه . وقد علم الأصول والفروع علما لا يلحقه فيه لاحق . وله مرثية أخرى فى محمد الدنبج التندغى . ويقول الشيخ سيديّا الكبير المتوفى سنة ١٢٨٤ هـ/١٨٦٨ م فى رثاء الشيخ الصوفى المختار الكنتى وزوجه الصالحة[١] :

جـادتْ سحائبُ رأفـة الـرحمـن ... بِهوامـلِ التكريـم والرِّضوان[٢]
وبوصفِ محضِ الوُدِّ والزُّلْفَى عـلى ... جَدَثين حلَّ حشاهما الشيخانِ[٣]
لاحـا وأخْـلاكُ الجهـالةِ فَحْمَةٌ ... وملابسُ البِدَع الجِداد مثانِ[٤]
والدِّيـن منهـدمُ القواعدِ مُرْكَسٌ ... بأخامِص الطغيـان والعِصيانِ[٥]
فغدا منـارُ الديـن بعـد تهـدمٍ ... ثبتَ الأسـاسِ مشيَّد الأركـان

وهو يدعو للشيخ وزوجته بأن تهمى عليهما سحائب رأفة الرحمن بمنهر التكريم والرضوان وبمحض الود والزلفى على قبريهما ، ويقول إنهما ظهرا وديا جى الجهالة فحمة ، وملابس البدع المحدثة لا تحصى ، والدين منهدم القواعد وعاليه مركسٌ بباطن أقدام الطغيان والعصيان ، فأصبح بفضلهما منارُ الدين راسخَ الأساس رفيع الأركان . ويقول محمد بن حنبل الحسنى فى رثاء الشيخ سيديًّا الكبير[٦] المذكور آنفا :

أرى الملَّةَ البيضاء جَلَّ مُصابُها ... ففاضتْ مآقيها وطـالَ انتحابُها[٧]
وقاستْ بفقد الشيخ وَجْدَ مصابِهِ ... بواحدهـا لمـا تولَّى شبابُهـا
وأظلم وَجْهُ الأرضِ حتى كأنما ... تردَّت مـدادا غُوطهـا وحِدابُها[٨]
وزُلْزل أقطـارُ البلاد فأصبحتْ ... شواهقُهـا مهتزَّةً وهضابُهـا
وزُعْزِعَ آطـامُ الهـدى وحصونُه ... وقُوِّض فُسْطاط العـلا وقِبابُها[٩]

وهو يقول إن وفاة الشيخ سيديًّا مصاب كبير لشريعة الدين الحنيف ، وكأنما قاستْ حزن سيدة فقدت واحدها أو ولدها الواحد ويقول إن وجه الأرض أظلم وارتدت رياضها

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣١٦ .
(٢) هوامل : مسايل .
(٣) جدثين : قبرين .
(٤) مثان : تتكرر وتتردد .
(٥) مركسٌ : مضروب . أخامص جمع أخمص : باطن القدم .
(٦) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣٢٣ .
(٧) الملة البيضاء : الدين الحنيف وشريعته .
(٨) غوطها : رياضها . حدابها : كثبانها .
(٩) الفسطاط : الخيمة الكبيرة .

وكثبانها مدادا أسود شديدا ، وزلزلت أنحاء البلاد واهتزت جبالها وهضابها وزعزعت منازل الهدى وحصونه وهُدِّمت خيام العلا وقبابها . وهى مبالغات شديدة فى الرثاء تعبيرا عن مدى الحزن الذى أصاب الشاعر والناس بوفاة هذا الشيخ الصوفى. ونتوقف قليلا إزاء أحد شعراء الرثاء .

## باب[1] بن أحمد بيب العلوى

كان أبوه عالما فاضلا ناسكا مشارا إليه – كما يقول الشنقيطى – فى بلده وجيله ، ملحوظا بعين التعظيم فى معشره وقبيله . ويقول عن باب إنه العالم الأوحد الذى أغار ذكره وأنجد . ومرَّ بنا أنه أكمل كتاب الديباج فى تراجم فقهاء المالكية من القرن الثامن الهجرى حتى القرن الثانى عشر . ولما كُفَّ عمه – وكان قاضيا – أنابه عنه فى قراءة الحديث للطلاب والناس حتى وفاته ، واشتد الخلاف بينه وبين ابن خاله حُرَم الذى مرت ترجمته فى مسألة من مسائل الوقف ، وانضم إلى كل منهما طائفة من العلماء والشعراء ، وكان فقيها محدثا ناسكا . ويقول الشنقيطى عنه : قلما مات أحد ممن يشار إليه فى قبيلته إلا رثاه ، توفى سنة ١٢٧٦ هـ/١٨٦٠ م . ومن قوله فى رثاء عبد الله بن حرمة بن الصبار العلوى :

كان عبد الإله بَرًّا تقيًّا ... نَزِهَ النَفْس طاهرَ الأثوابِ
صحب الصالحين وهْو صغيرٌ ... لم يَنَلْ منه عنوانُ الشبابِ
كان بَرًّا بأمِّه وأبيهِ ... ورفيقا بجاره ذى الجَناب[2]
وهْوَ فى لَزبةِ الزمان ربيعٌ ... ذو جِفانٍ كأنهنَّ جوابى[3]
كلَّ يومٍ تراه يدرسُ علمًا ... وهْو بالليل قائمُ المحراب

يقول باب إن عبد الله كان صالحا تقيا نزيها عن الصغائر طاهر الأثواب ، صحب الصالحين ناشئا فى شبابه ، وكان بارا بأمه وأبيه ورفيقا بجاره البعيد فضلا عن القريب . وفى أيام الشدة والجدب يصبح ربيعا للناس وتكتظ مائدته لهم بقصاع كالحياض مترعة بالطعام ، وفى كل يوم يدرس للطلاب والناس علما وفى الليل يخلص لربه مصليا فى المحراب . ويقول فى رثاء محمد بن أحمد الحسنى :

---

(١) انظر فى ترجمة باب وشعره الوسيط ص ٣٤ والشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣٠٦ وما بعدها .

(٢) ذى الجناب : يريد البعيد .

(٣) لزبة : شدة . الجفان جمع جفنة : القصعة . الجوابى جمع جابية : الحوض .

فعلُ الجليلِ جميلٌ فارْضَ ما فَعَلا ... رَمَى بقلبك شَجْوًا أو رمى جَذَلا[1]
واذكُرْ مصيبةَ خيرِ الخلقِ تَسْلُ بها ... إذا عليك مُصابٌ معضلٌ نَزَلا[2]
به تيتَّم - إذ أُوْدَى - بنو حسنٍ ... يُتْمَ ابنِ يومين والعافون والنُّزَلا[3]
لو ساعدتنى القوافى ما تركتُ لمن ... يَرْثى مقالا ولا يشفى لىَ الغُلَلا[4]

وباب يدعو للرضا بقضاء الله وكل ما ينزله بالإنسان من حزن أو فرح ، ويقول إن مصيبة الأمة فى خير الخلق رسولها الكريم يجعل كل فرد فيها يتعزّى بها عن كل ما ينزل به من مصاب فادح أو كما يقول شديد عسر . وقد أصاب باليتم من يعولهم من بنى حسن والسائلين والضيفان . ولو ساعدته القوافى ما ترك لراث أو نادب مقالا ، ومهما قال فلن يستطيع شفاء ما يكنه من حرارة الحزن عليه . ويقول فى رثاء زوجته مريم بنتِ محمد مولود :

هَمٌّ تأوَّبه من بعد ما هَجَعا ... قد بات منه يراعى النجمَ مَكْتِعا[5]
أضْحَى الفؤادُ به من لوعةٍ خَبِلاً ... والعَيْن تسكبُ من تَذْرافها دُفَعا
يَبكى على مريمٍ يوما وحَقَّ له ... أن لا يزال عليها باكيا وَجِعا
يا ليلةً بِتُّها جَنْبَ المليحة لم ... أهْنَأْ وقد نام عنى القومُ مضطجعا
حتى دعاها إلى المولى المهيمنِ ما ... يدعو الملوك ويدعو الأعْصَمَ الصَّدَعا[6]
يا ربِّ مريمُ قد وافَتْك وافدةً ... فاجعلْ لها جَنَّة الفردوس مُرْتَبَعا

ومريم زوجة باب هصر الموت غصن شبابها فى سن الواحدة والعشرين وقد تركت ولديها فاطمة وأحمد وقلبه مشغوف بهما ، وهو يقول إن همًّا ظل يعاوده بعد هجوعه قليلا ، وظل سهران يراعى النجوم فى غروبها وكأنما أصابه لشدة لوعته خَبَل ، وعينه تذرف الدمع مدرارًا ، ويبكى على مريم بكاء حارًّا ويتوجع وما كان عليه أشد من ليلتها الأخيرة وهو بجوار محبوبته يتجرع الحزن وقد نام الناس جميعا ، ودعاها إلى ربها الموت الذى يدعو الملوك والوعول والوحوش الفتيَّة ، ويدعو لزوجته ربه أن يدخلها فراديس الجنان . ويستمر فى القصيدة ويدعو الله أن يلطف بولديها وأن تصلى عليها الملائكة وحاملو العرش والأنبياء والمسلمون فى صلاة الجمعة وحجاج بيت الله الحرام ، ويسترجع مستسلما للقضاء . والمرثية مؤثرة بالغة التأثير .

---

(١) شجوا : حزنا . جذلا : مسرة .
(٢) معضل : شديد أو لا يمكن البرء منه .
(٣) العافون : السائلون .
(٤) الغلل جمع غلة : حرارة العطش وتستعار لنار الوجد والحزن .
(٥) مكتعا : مائلا إلى الغروب .
(٦) الأعصم الصدع : الوعل الفتىّ القوى .

# الفصل الرابع

## طوائف من الشعراء

### ١

**شعراء الغزل**

فلما يخلو شعر شاعر موريتانى من أبيات ومقطوعات – وأحيانا قصائد – تصف تعلقه بفتاة فى شبابه ، غير أن شاعرا لم يعش لوصف الحب وتباريحه ، مثل شعراء الغزل العذرى فى عصر بنى أمية من أمثال قيس بن ذَريح وجميل أو مثل شعراء الغزل الصريح أمثال عمر بن أبى ربيعة والعَرْجى ، إنما هى خواطر تلم بالشاعر الموريتانى إزاء عاطفة الحب الخالدة فى الحياة الإنسانية . ودأب الشعراء على محاكاة أسلافهم من شعراء العرب فى التقديم لقصائدهم الطويلة بذكر الأطلال ووصف الأظعان وما يتخلل ذلك من النسيب . ولن نقف فى عرضنا للغزل الموريتانى عند هذا الجانب لأنه – فى واقعه – محاولة لمحاكاة القدماء وقلما حمل تصوير الموجدة الحقيقية إنما نعرض طائفة بديعة من أشعار الغزل التى انتخبها الدكتور محمد المختار ولد إباه فى كتابه الشعر والشعراء فى موريتانيا ، وممن أنشد له مقطوعات وقصائد طريفة فى الغزل محمد بن محمدى وله من قصيدة بارعة[1] :

فيمن أهيمُ بها لاموا ولو هاموا ... فيمن أهيمُ بها يوما لما لاموا
هام الفؤادُ بِمَنْ لولا ملاحتُها ... ماسُفِّهتْ من ذوى الأحْلام أحلامُ
تلك التى مِنْ لَمَاها مسَّنى لَمَمٌ ... بادٍ ومن سَقَم الأجفان أسقام[2]
نامَ الأخِلاَّءُ عن ليلى وأرَّقنى ... شوقى وما صدق العُشَّاقُ إن ناموا
مَنْ لى بوصلٍ وإن كان الوصالُ بما ... تبديه فى سِنَةِ الوَسْنانِ أحلام
إن تمنع الوَصْلَ أيامٌ لنا فعَسَى ... أن تمنح الوصلَ للمشتاقِ أيَّامُ

وهو يقول إن من حولى يلومونني فى هيامى بصاحبتى ولو رأوا جمالها الفاتن يوما لهاموا بها مثلى وكفُّوا من لومهم ، وقد هام الفؤاد بها لحسنها ولولاه ما سُفِّهت عقول العقلاء الذين شغفوا بها حبا . وتلك هى التى مسَّنى من جمال شفتيها وفتنتها ما يشبه الجنون وأصابنى من سقم أجفانها ما لا يحد من الأسقام . ويعجب أن نام الأخلاء وهو مؤرَّق مسهَّد لأنه عاشق ،

---

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٩٦ .

(٢) لماها : سمرة شفتيها . لمم بطرف من الجنون أو شدة .

والعاشق لا يصدق فى عشقه إن نام . ويتمنى وصل صاحبته ، ويقول ما أشبهه بالأحلام يراها الوسنان فى نعاسه ، ويقول إن كانت أيام لنا لم تسمح بالوصال فعسى أيام أخرى تسمح باللقاء . وكان يعاصره محمد بن طلبة وسنفرد له ترجمة . ويقول المختار[1] بن محمد الحسنى من شعراء القرن الثالث عشر الهجرى :

شَأْنُ المحبين أن يبكوا وأن يقفوا ... بين المنازل فابكوا بينها وقِفُوا
ما فى البكاء بها عارٌ ولا سَرَفٌ ... بل البكـــاء على غير الهـــوى سَرَفُ
إن لم تكن عبراتُ العَيْن واكفةً ... فيهـــا ففى أىِّ دارٍ بعدهـــا تكِفُ[2]
والعينُ ما برحتْ من فيْضِ عَبْرتها ... إنسانُهـــا يختفى طـــورا وينكشف
تُصْمِى القلوبَ بِسَهْمَىْ لحظها عَرَضًا ... إن القلـوبَ لسَهْمَىْ لحْظها هَدَفُ[3]

وهو يقول لصحبه إن عادة المحبين إذا ألموا بديار محبوباتهم أن يستوقفوا الركب ويبكوا فقفوا وابكوا فى منازل صاحبتى ، وإن لم تَسِلْ عبراتى ، ففى أى دار غير دارها تسيل وإن عبراتى لتهمى حتى ليختفى إنسان عينى وراءها تارة ، وتارة ينكشف ، وإنها لتصيب القلوب بسهام لحظها دون قصد حتى لكأن القلوب دائما لها هدف . ويقول محمد[4] بن حنبل الحسنى المتوفى سنة ١٣٠٢ هـ/١٨٨٥ م :

اسكُبى الدمع وَاهجُرِى النومَ عينى ... صَرَمتْ حَبْلَ الوَصْـلِ أُمُّ حكيم[5]
تلك مَن جرَّعتْ فؤادى كئوسًا ... من هواهـــا تُبيتنى كالسَّليـــم[6]
لا تَظُنَّ الظنـونَ أنَّ مقـامى ... بالْيُنَيِّيـــع لاطِّـــلاب العلـــوم
بـــل لغَرْبيَّـــةٍ تهـــبُّ عَشِيًّا ... بِشَذاهـــا فأشتفِـــى بالشَّمِيـــمِ
وأرى عـــينَ من رآهـــا فأطْفى ... لَهبَ الوجـد من حَشاىَ الكليـــمِ

وهو يطلب من عينه أن تسكب الدمع مدرارا وتهجر النوم هجرانا ، فقد قطعت أم حكيم ما كان بينها وبينه من وصل ، ويقول إنها جرعته كئوسا من حبها جعلته يبيت طوال الليل كالملدوغ . ويذكر أنه ينبغى أن لا يظن أحد أن مقامه فى جوارها بالينبوع من أجل طلب العلوم ، وكان شغوفا بها ، إنما هو من أجل استرواح الريح الغربية التى تحمل عطر أم حكيم فيشتفى بها أو ليرى عين من رآها فيطفىء نار الوجد المشتعلة فى حنايا أحشائه . ونتوقف قليلا إزاء بعض شعراء الغزل .

---

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ١٠٣ .
(٢) واكفة من وكفت تكف : تسيل .
(٣) تصمى : تصيب .
(٤) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ١٠٥ .
(٥) صرمت : قطعت .
(٦) السليم : الملدوغ .

## الأحول[1] الحسني

هو عبد الله الأحول الحسني ، كان حسن الأخلاق عالما باللغة ، ولما وقعت الحرب بين قومه وبين العلويين انحاز فيها إلى قومه وسلَّ معهم سيفه ، ونظم فيها أشعارا كثيرة ضد العلويين ، وما زال حاملا سلاحه حتى قتل فى إحدى معاركها سنة ١٢٥٠ هـ/١٨٣٥ م وأنشد له الشنقيطى والدكتور محمد المختار قصائد ومقطوعات غزلية مختلفة منها قوله :

شَدُّوا المهارَى بأكوارٍ وأحْداجِ ... وأدلجوا تحت ليلِ الْيَلِ داجِ[2]
فأصبحتْ دورُهم قَفْرا معطَّلةً ... تَبْكى دواعى هَديلٍ شَجْوُها شاجِ[3]
تلوح آثارُ من بانوا بمعهدها ... مثلَ البُرود وَشَتْها كفُّ نَسَّاجِ
فما علمتُ ولم أشعر بَبَيْنِهِمُ ... إلا بِجَوْنٍ من الغربانِ شحَّاجِ[4]
تَبًّا لعِيسٍ نأتْ عنا بناعمةٍ ... غَيْداءَ ريَّانةِ الحِجْلَيْنِ مِغْناجِ[5]

والأحول يقول إنْ أهل صاحبته شدوا الإبل للرحيل ومعهن النساء فى الرحال والهوادج ، وساروا فى ليل شديد الظلام وأصبحت دورهم خالية يبكى فيها الهديل وحماماته بكاء يثير الوجد والشجن ، وآثارهم فى الديار وكأنها ثياب زيَّنها نساج بما فيها من رسوم وخطوط . وما أعلمنى ببينهم وبعدهم إلا نعيب غراب شديد السواد . ويقول هلاكًا لإبل بعدت عنا بحسناء ممتلئة الخلخالين ذات دلال يزيدها حسنًا ، ويقول :

أمستْ معاهدُ سُعْدَى باللِّوَى دُرُسَا ... من صَوْب وَدْق الغوادى بُكْرَةً ومَسَا[6]
كم حاورتْنى بها حوراءُ آنسةً ... غرَّاءُ مَنْ حاورتْه منطقا أنِسا[7]
ألهو بِسُعْدَى وسُعْدَى لا يُخَبِّبُها ... نَمُّ المريدين تَخْبيبا من الجُلَسَا[8]
بيضاءُ من مدَّ فيها العينُ فاقتبستْ ... تحت الدُّجى من سَناها أنكر القَبَسا
بل لورآها أهالى يوسفٍ قُطِعتْ ... منهم قلوبُ رجالٍ لا أكفُّ نِسا

وهو يقول إن ديار سعدى صاحبته أصبحت عافية من طول ما انسكب عليها من أمطار السحب صباحا ومساء ، ويذكر صاحبته اللطيفة الحسناء وأنسه بها وبأحاديثها حين كانت

---

(١) انظر فى ترجمة الأحول وشعره الشنقيطى ص٣٠٤ والدكتور محمد المختار ص ٨٤ وفى مواضع مختلفة .
(٢) المهارى : الإبل . الأكوار : الرحال . الأحداج : الهوادج . أدلجوا : صاروا ليلاً . أليل : شديد السواد .
(٣) هديل : ذكر الحمام . شجوها : حزنها . شاج : كثير الحزن .
(٤) بَيْنهم : بُعدهم . جون : أسود . شحاج : يكثر من النعيب والصياح .
(٥) العيس : الإبل . غيداء : حسناء . ريانة الحجلين : ممتلئة الخلخالين . مغناج : ذات دلال .
(٦) درسا : عافية . ودق : مطر . الغوادى : السحب .
(٧) حوراء : ذات حور فى عينيها وجمال . غراء : بيضاء .
(٨) يخببها :يخدعها . المريدين : المعجبين .

تلهو معه غير آبهة بكلام المعجبين النمَّامين ، ويقول إن من يرنو إليها طويلا يشعر كأنما قَبسَ من جمالها المضيء ما يفوق قبس النار حسنا وجمالا بل لو رآها رجال النسوة اللائى قطعن أيديهن حين أبصروا جمال يوسف لقطعوا قلوبهم افتتانا بها . ويقول :

غُرَّاءُ لا يرقبُ الراءون وَجْنَتَها ... إلا ثَنَى النـورُ منهـم حِدَّةَ النَّظرِ
لم تَدْرِ هل هىَ من شَذْرٍ مركَّبةٌ ... أم من صريف لُجَيْنٍ أم سنا قَمرِ[1]
كـلٌّ تلابسَ إلا أن يميِّزهـا ... من ذا ومن ذَيْن وَسْمُ الدَّلِّ والخفَر

فهى بيضاء لا يرمقِ المبصرون وجنتها النيِّرة إلا صرف نورها حدة النظر إليها لشدة سطوعه كسطوع ضوء الشمس . ويقول إن مبصرها لا يدرى هل هى مركبة من قطع ذهب أم من قطع فضة أم من ضوء قمر ، وكأنما كل ذلك يلتبس بها إلا ما تتميز به من الدلال والحياء اللذين يزيدانها حسنا وبهاء .

## محمد[2] بن الطلبة اليعقوبى

عشيرة اليعقوبيين أو قبيلتهم فى شنقيط ومراعى تيرس وريفها من سلالة عون بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وامتاز اليعقوبيون بالتعمق فى العلوم الفقهية واللغوية ، وكانت لهم مدرسة تعنى بتدريس هذه العلوم ، فتوارثوا التدريس فيها كما توارثوا القضاء ، وكان أبو الشاعر وجده مدرسين ، فهو من بيت علم ، وعنى أبوه بتربيته ، وكان يُدْرَس للطلاب حينئذ المعلقات السبع ودواوين الشعراء الستة : امرىء القيس وزهير والنابغة وطرفة وعنترة وعلقمة ، وديوان ذى الرمة . وأضاف إلى ذلك الطلاب النابهون من أمثال محمد بن الطلبة ديوان الشماخ والأعشى وغيرهما من القدماء . وتمثل ابن الطلبة الشعر الجاهلى والإسلامى تمثلا لانكاد نجد له نظيرا بين شعراء البلاد المغربية على الأقل إن لم يكن بين شعراء العربية عامة ، وتقرؤه وكأنك تقرأ لشعراء الجاهلية المفرطين فى استخدام الألفاظ الغريبة من مثل الحارث بن حلِّزة والشماخ وأضرابهما من الجاهليين . وهيَّأ لذلك عند محمد بن الطلبة وغيره من شعراء موريتانيا أن بيئتها كانت تشبه البيئة الجاهلية بصحاريها وبقبائلها الرُّحَّل وراء المراعى ومساقط الغيث ، وبإبلها وأنعامها الراعية وبآبارها الآجنة وفى كل بقعة فى المراعى نجد أطلالا وآثارا لمن أقاموا بها فترة ثم زايلوها . وكما يكثر الشاعر الجاهلى من قطع المفاوز على ناقته كذلك يكثر الشاعر الموريتانى مستمدا من واقع حيـاته الذى لا يختلف عن واقع حيـاة الجاهليين ، وكاد محمد بن الطلبة لا يترك موضعا

(١) شذر: قطع الذهب . صريف لجين : قطع فضه . سنا : ضوء .
وقد أنشد فى كتابه معارضاته جميعا وكثيرا من شعره ، وراجع الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٩٠ وما بعدها .

(٢) انظر فى ترجمة محمد بن الطلبة الشنقيطى ص ٩٤

فى تيرس ومراعيها وريفها إلا تغنى به . وتغنى طويلا بمسيرة الظعن ، وبين الظاعنات محبوبته ، كما تغنى طويلا بحيوانات الصحراء من إبل وخيل وبقر وظباء ونعام وأتن وحشية مع حمارها ، فالحياة الصحراوية الجاهلية بحذافيرها يتمثلها محمد بن الطلبة وغيره من شعراء موريتانيا ، وكأنما أراد أن يثبت مدى صحراويته فى شعره فاختار قصيدتين للشماخ ولحميد بن ثور الصحابيين تكتظان بالغريب وبوصف الحياة الصحراوية وحيواناتها وظعنها وعارضهما معارضة رائعة . وبالمثل عارض قصيدة للأعشى ، ولن نسوق أمثلة لغزله من هذه القصائد لكثرة الغريب فيها ، إنما نسوق له أمثلة من غزلياته الأخرى منحيّن ما ينظمه ممتلئا بالألفاظ الصحراوية الآبدة ، فمن ذلك قوله مخاطبا محبوبته التى يسميها أم المؤمنين :

كيف التجلُّد لا تجلُّدَ بعدما ... شَطَّتْ بأمِّ المؤمنين نَواها[1]
عوجى قليلا ريثما أشكو الذى ... قد شفَّ نفسى منكمُ وبَراها[2]
ما كان ضَرَّكِ لو رَدَدْتِ تحيَّةً ... فيها لنفسى – لو رددتِ – شِفاها
واهًا لما أُبْدَى لنا يومَ النَّوَى ... منها الوداعُ وقلَّ منَّا واها[3]
يا ليت شعرى والفراقُ موكَّلٌ ... بالعاشقين متى يكونُ لقاها

وهو يقول كيف التجلُّد للأسى والصبر بعدما أوغلت بها النَّوَى وبعد الدار ، ويتمنى لو كانت وقفت له قليلا ليشكو لها شفوف نفسه وضنا جسمه بحبها ، ويقول إنه حيَّاها ولم تحيِّه ولو حيته لشفت نفسه مما يضطرم فيها من الألم ، ويتفجع لوداعها يوم الفراق ويتحسر متمنيا لقاءها بعد هذا الفراق . ويقول :

لا القلبُ عن ذكر أمِّ المؤمنين سَلا ... ولا أرى عاذلاتى تترك العَذلا[4]
بل لا أرى لوم من يَلْحو ومن عذلا ... إلا يزيدُ علىَّ الهمَّ والخبَلا
ولا أراني أرى رَسْما ولا طَلَلا ... إلا وساءلتُ عنها الرسم والطَّلَلا
هى التى أنا لا أبغى بها بدلاً ... ونَيْلَ الوصْلَ منها نَيْلَىَ الأملا

فهو لن يسلو صاحبته مهما لامته اللائمات ، بل إن لوم من يلومه إنما يزيده هما وجنونا بحبها ، ويقول إنه لا يرى رسما ولا طللا إلا سأله عنها كأنما تملأ عليه جميع البقاع ، ويؤكد أنه لا يبغى بها بدلا لها إذ نيل وصلها نيل أمله فى دنياه . ويقول فيها :

---

(١) التجلد : الاحتمال فى صبر . النوى : الفراق والبعد .
(٢) عوجى : توقفى وميلى . براها : نَحَلها .
(٣) واها : كلمة تقال فى التفجع وفى العجب .
(٤) العذل : اللوم ، ومنه العاذلات .

إن قلبـي متيَّـمٌ بالحسـانِ  من ذوات الأحْساب من حسَّانِ
كلُّ بيضـاءَ خَدْلةِ الساقِ رُودٍ  تَتَثَنَّى كأنهـا غُصْنُ بـانِ[1]
جعلتْ فـوق نَحْرِها الشَّذْرَ والـدرَّ وناطتْ قلائـدَ المَرْجـانِ[2]
غير أني مـا إنْ وجـدتُ كـأُمِّ المـؤمنين العَروبِ فـي النِّسوانِ[3]
ولهـا منطـقٌ لـو اصْغَى لـه الرُّهْبـانُ أصْبَى مشـايخَ الرُّهبانِ[4]

وهو يقول إن قلبه مشغوف بالحسان ذوات الحسب والنسب من قبيلة حسان الشنقيطية ، فكل فتاة بيضاء منها ممتلئة الساق شابة فاتنة تتمايل تمايل غصن البان على شجرته ، وفوق نحرها شذور الذهب واللؤلؤ وقلائده ، وفاتنتهن أم المؤمنين الجميلة ذات المنطق الجميل الذى لو أرهف الرهبان السمع إليه لأصباهم ومالوا إليها إعجابا . ولابن الطلبة وراء ذلك غزَليات كثيرة . وقد توفى سنة ١٢٧٢ هـ/١٨٥٦ م .

## يقوى[5] الفاضلى

ذكر الدكتور محمد المختار فى كتابه الشعر والشعراء فى موريتانيا طائفة من الشعراء الغزلين فى القرن الثالث عشر الهجرى وما لهم من قصائد ومقطوعات غزلية مثل المجدد المجلسى والمأمون اليعقوبى ومحمد بن السالم والمختار بن محمد الحسنى والهادى العلوى ومحمد بن بابكر ، وقال من أفضلهم وأجودهم شعرا يقوى الفاضلى الذى ذكر عنه أنه توفى سنة ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٦م وقال إنه شاعر رقيق مطبوع ، وأنشد له قصيدتين غزليتين ، وفى أولاهما يتغزل فى صاحبته سليمى منشدا :

زعمَ الجاهلون أنَّ عهودًا  كـنَّ بيني وبَيْنهـا أنْساهـا
أو منحتُ الوداد غير سُلَيْمى  لا ومَنْ زيَّـن السَّما وبَنَاهـا
ما تغيَّرتُ لا ولكنْ عَدانى  عن لِقاهـا أجلُّ ممـا عَداها[6]
ومهاوٍ تهابُ – إن نظرتْها –  عَيْنُ مجتازها الجليدِ سُرَاها[7]
قد تجشّمتُ هولهـا أتخطَّى  لسُلَيْمَى حتى دخلتُ حِماهـا

(١) خَدْلة الساق : ممتلئة . رود : شابة جميلة .
(٢) الشذر : قطع الذهب . الدر : اللالىء . ناطت : علقت . المرجان : حجارة كريمة بيضاء وحمراء .
(٣) عروب : لطيفة .
(٤) أصبى:جعل مشايخ الرهبان تصابى وتتكلف الهوى.
(٥) انظر فى غزل يقوى الفاضلى الشعر والشعراء فى موريتانيا ص٩٩ ومابعدها وانظر فى وفاته وتاريخها ص٧٤.
(٦) عدانى : شغلنى .
(٧) مهاو : جمع مهوى يريد مفازات يسقط فيها الإنسان ويهلك الجليد القوى : المتحمل للمشقة بصبر . السرى : السير ليلا .

وهو يذكر أن من لا يعلمون مدى حبه لها ظنوا أنه نسى ما كان بينه وبينها من عهود أو أنه منح حبه لأخرى ويقسم بمن زين السماء بنجومها وكواكبها أنه ما نكث عهدا لها ولا تغير . إنما شغله عنها أخطر مما شغلها وما يقوم دون لقائها من مفازات مهلكة ، يهاب الجليد الجرىء الصابر السُّرى والسير فيها ليلا ، وقد تحمل هولها متخطِّيا من مفازة إلى أخرى حتى دخل ديارها وحِماها ، يقول :

وتميَّزتُها فدَلَّ عليها ... فى الدُّجَى طِيبُ نَشْرِها وبُرَاها[1]
فعلتْنى مهابةٌ ووجومٌ ... من لِقاها وما علانى عَلاها
وأشارتْ بأنَّ فى البيت ناسًا ... ينشرون الحديث عَمَّنْ أتاها
قلتُ لأيًا وَصَلْتُ قالتْ تَنَحَّ ... قبل دهياءَ مُعْضلٍ ألقاها[2]
وصفا بيننا الحديثُ وقالتْ ... لا تُعِدْ مِثْلها وألقتْ عصاها[3]
ثم بِتْنَا بقيَّةَ الليل نلهو ... بأحاديثَ لا يُمَلُّ جَناها[4]

وهو يقول إنه بحث عن سليمى ودلَّه فى الليل طيب عطرها وأصوات أساورها وخلاخيلها ، ويذكر أنهما حينما تلاقيا علتهما مهابة ووجوم وأشارت إليه أن فى البيت ناسا يذيعون الخبر عمن أتاها وتخشاهم ، فقال لها لقد تحملت مشاقَّ حتى وصلت إليك فقالت له : الزم ناحية لا تظهرك قبل أن ألقى داهية لا أستطيع النجاة منها ، ونازعها الحديث وصفا بينهما وقالت له لا تكرر مثلها ، وباتا بقية الليل ينعمان بأحاديث شتَّى . والقصيدة سلسة مثل هذا الحوار بينه وبين سليمى . ويقول فى قصيدته الثانية :

مغانٍ سقانى الدهرُ فيها على الظَّما ... كئوسَ المنى من كلِّ أحورَ أهيفا[5]
لعمرى لئنْ أمستْ عفاءً لفى الحشَا ... لها منزلٌ لم يَعْفُ قطُّ وما عَفا
وناهدةٍ تَجْلُو أغرَّ كأنما ... بِتِرْياقِها صبَّ المهيمنُ قَرْقَفَا[6]
على وَجْنَتيها قد جرى متحيِّرا ... ولَبَّتِها ماءُ الملاحة والصَّفا[7]

يقول إنها مغان أو منازل طالما سقاه الدهر فيها – وهو ظامىء – كئوس المنى من كل بيضاء ضامرة الخصر فاتنة ، ويقسم إنها إن كانت قد عفت وأصبحت أطلالا فإن منزل صاحبته ودارها فى حشاه لا يعفو أبدا . ويصف صاحبته بأنها شابة تفترُّ عن ثغر مشرق وكأنما امتزج رضاب ريقها بخمر مسكرة ، ويقول إن رونق الملاحة والصفا يجرى مترقرقا على وجنتيها ولبَّتها الجميلة .

---

(١) نشرها : عطرها . البرى : الخلاخيل والأساور .
(٢) دهياء : داهية . معضل : شديدة .
(٣) ألقت عصاها : اطمأنت واستسلمت .
(٤) الجنى : الثمر الحلو .
(٥) أهيف : ضامر . ذكَّر الصفة لضرورة الشعر .
(٦) ناهدة : شابة . أغر : أبيض يريد ثغرا أبيض . قرقف : خمر .
(٧) لبتها : موضع القلادة من الصدر .

## ٢

### شعراء التصوف

عرفت موريتانيا التصوف كما عرفته الأقاليم الإسلامية جميعا ، وكان يشيع فيه مذهبان : مذهب فلسفى يؤمن أصحابه بالاتحاد مع الله والفناء فيه وأيضا بحلوله فيهم ، ومذهب سنى يقف عند أداء الفرائض الدينية والنوافل والإخلاص العميق لله ومحبته محبة صادقة . وطبيعى أن لا يتعلق الموريتانيون بالمذهب الأول ، لأنهم لا يتفلسفون بل يعيشون معيشة أقرب إلى الفطرة ، فلم يعتنق المذهب الصوفى الفلسفى عندهم أحد ، ونفس معتنقيه فى الأقاليم الإسلامية الأخرى كانوا دائما أفرادًا ولم يصبح موجة عامة فى أى بيئة عربية ، إنما الذى أصبح له ذلك المذهب الصوفى السنى ، وأخذت تظهر فيه طرق منذ القرن السادس الهجرى ومن أهمها الطريقة القادرية لعبد القادر الجيلانى المتوفى سنة ٥٦١ هـ/١١٦٦ م وشاعت فى المغرب ، ونجد شعراء موريتانيا يذكرونها ويشيدون بشيخها أحيانا . وأهم منها الطريقة الشاذلية المنسوبة إلى أبى الحسن الشاذلى المتوفى سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م وقد انتشر شيوخها فى البلاد المغربية ، وكانت أكثر شيوعًا فى موريتانيا من الطريقة القادرية ، وأوسع منهما جميعا الطريقة التيجانية المنسوبة إلى أحمد التيجانى المتوفى بفاس سنة ١٢٣٠ هـ/١٨١٥ م إذ يبدو أنها انتشرت فى موريتانيا انتشارا واسعًا لكثرة من نجدهم من الشعراء يشيدون بها وبمؤسسها ويدافعون عنها دفاعًا حارًّا ، من ذلك قول محمد بن عبد الله العلوى منوها بطريقته وولايته[1] :

طالعْ جواهرَهُ واصحَبْ رسائلَهُ ... وما يبثُّ من الأنوار والحِكمِ
تجدْ ولايتَــه لاحتْ معالمهــا ... كما تُرَى فى الدُّجَى نارٌ على علَمِ

وهو يشيد برسائل له فى النزعة الصوفية ولعله يريد بجواهره وِرْده الذى يُقْرأ فى الصباح ، وينوه بولايته التى شاعت له فى الآفاق كما تشيع أضواء نار على قمة جبل عال . ويقول عبدالله بن أحمد دام ، وهو من أتباع طريقته مثل سالفه المعاصر له مدافعًا عنه ضد خصوم طريقته[2] :

مَنْ كان فى مذهب التيجانِ مُمْتَرِيًا ... فإننى لكمــال الشيخ معتقــدُ
مَنْ ينظــرِ الكتُبَ التى أفادَ بها ... ينظــرْ كلامَ محقٍّ كله رشَدُ
أما الذيـــن تعاطــوا وِرْده فلقد ... أعيا على العــدِّ حَصْرا منهمُ العَدَدُ

(١) الشنقيطى ص ٣٣ .
(٢) الشنقيطى ص ٢٨٩ .

فهو من المعتقدين فى إمامة أحمد التِّيجانى الصوفية وقطبيته ويقول إن من ينظر فى رسائله ومؤلفاته يعرف روعة كلامه وصدقه وتصوفه الحق ، ويذكر أن من اعتنقوا طريقته ويقرءون ورده يفوتهم العدّ والإحصاء . ويقول محمد بن عبد الجليل العلوى[1] :

إنا حماةُ طريقِ أحمدَ شَيْخِنا ونجيبُ عنه المنكريـــن ومَنْ جَفا
ونُعِدُّ للعادى عليه صوارمًا وأسودَ غابٍ فى الكريهةِ زُحَّفا[2]

وهو يذكر عن نفسه وشيخه التيجانى أنهم حماة طريقته يذودون عنها بالحجج الدامغة وبالسيوف القاطعة تحملها أسود غاب ضارية . ونقف قليلا بإزاء شيخين موريتانيين من شيوخ التصوف .

## المختار[3] الكنتى

من ذرية عقبة بن نافع والى المغرب ومؤسس مدينة القيروان ، يقول الشنقيطى عنه : « كان من أفراد عصره علما وصلاحا ، ولم نر أحدًا يطعن فى ولايته سوى المختار بن بون كان يشدد النكير عليه لِما بلغه من أن الشيخ الكنتى يسلبه . ورجع عن ذلك وصارت بينهما مكاتبات وملاطفات ، ويقول الشنقيطى : « على أنه لا يوجد ولى إلا وتنكر عليه أشياء من العلماء » ومن نظر فى كتبه سواء كانت فى الحقائق الصوفية أو غيرها يتبين له فضله ، وفيه يقول محمد بن الأمين :

وأخرجه ذو العرش للناس نائبًا عن المصطفى والأمرُ فاشٍ وذائعُ
ويُرْضع من ثَدْى المعارف مَنْ أتى مُريـدا ولـم تُرْضِعْ كذاك المرَاضعُ

وهو يقول إن الله أخرجه نائبا عن الرسول فى هداية الناس ، وهى مبالغة واضحة . ويذكر أنه يغذى مريديه الكثيرين الذين يأخذون العهود عليه من المعارف الربانية غذاء لا يماثله أى غذاء لشيخ من شيوخ الطرق الصوفية . وقد توفى سنة ١٢٢٦ هـ/١٨١٢ م . وله يدعو إلى العمل الصالح استعدادا للآخرة :

أيقظْ جفونَك إن القلبَ وَسْنانُ وصمِّمِ العزم إنَّ العـزم كسلانُ[4]
وجِدَّ شوقا إلى أُخْراك مُبْتدرا إن اللبيب إلى أخـــراه حنَّـــانُ[5]
واعملْ لدارٍ بها اللذّاتُ قاطبةً رَوْحٌ وراحٌ وراحاتٌ ورَيْحانُ
ظلٌّ ومـــاءٌ وأزهـــارٌ مفتّقةٌ عن الكمائم أشكـــالٌ وألـــوان
قيعانُ مسكٍ بهـا الأنهـارُ جاريةٌ خمرٌ ومـــاءٌ وماذِيٌّ وألبـــانُ[6]

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٢٧٨ .
(٢) صوارم : سيوف قاطعة .
(٣) انظر ترجمة المختار الكنتى وشعره فى الشنقيطى ص ٣٦١ والشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣٩٠ .
(٤) وسنان : نائم .
(٥) حنان : مشتاق .
(٦) ماذىّ : عسل مصفّى .

وهو يدعو النائمين عن العمل للآخرة أن يفتحوا عيونهم ويعزموا عزما صادقا على العمل لها والجد فيه فالعاقل من بادر إلى ذلك اشتياقا للآخرة ، وعمل لدار الخلد المشتملة على جميع اللذات من راحة وخمر ومسرات وريحان عطر ، وظل وماء جار وأزهار عبقة أشكال وألوان وقيعان مسك تجرى من تحتها الأنهار وخمر غير مسكرة وعسل مصفى وألبان ، ويسترسل فى وصف من بالجنة من الحور العين منشدا :

بيضٌ نَواعِمُ أبكارٌ منعّمةٌ ... تحار فيهن ألبابٌ وأذهانُ
يَرْفُلْنَ من سُندسِ الفِرْدَوْس فى حُلَلٍ ... من فوقها حُلَلٌ من تحتها بانُ[1]
نشَأْنَ وسْطَ مقاصيرٍ مزخرفةٍ ... لم يَطْمِثْها بها إنسٌ ولا جانُ[2]
رِيقٌ لذيذٌ وأنفاسٌ معطَّرةٌ ... ومنطقٌ ساحرُ الألفاظ فتّانُ
مهورُهنَّ صلاحٌ دائمٌ وتُقىً ... زهدٌ وصبرٌ وإخلاصٌ وإيمانُ

وهو يستمد فى وصفه للحور العين من سورة الرحمن فى القرآن الكريم ، فيقول إنهن بيض ناعماتٌ أبكار مترفات تحار فى جمالهنَّ العقول والألباب يتبخترن فى حلل الفردوس السندسية ، وقد نشأن فى غرف مزخرفة ، لم يلامسهن إنس ولا جان ، رِيقهن لذيذ ونَفْحهن شذى وعطر ، ويتحدثن حديثا ساحرا فتانا ، ومهورهن صلاح وتقى وزهد وتقشف وإخلاص لله ودينه الحنيف وإيمان صادق .

## الشيخ سيديًا[3]

هو الشيخ سيديًا ( بتشديد الياء ومدِّها ) بن المختار بن الهيب التندغى الأبَيْرِىّ ، يقول الشنقيطى : « هو العلَمُ الذى رُفع على أهل قطره ، واستظلَّ به أهل دهره .. اشتغل فى شبابه بالعلوم وبرع فيها بملازمته لأستاذه حُرَم بن عبد الجليل العلوى . ولما تضلع من علمه شدَّ الرحال إلى الشيخ المختار الكنتى بآزواد .. ولازمه ستة أشهر ، ثم مات الشيخ المختار فبقى عند ابنه محمد خليفته فى الطريق الصوفى ، ولازمه عشرين سنة حتى برع فى معرفة الطريق ، ورجع إلى قبيلته أولاد أبَيْر فتلقوه بما هو أهله واعترفوا بفضله . ولم تزل فضائله تنمو حتى أذعنت له قبائل الزوايا وحسان وصار مثل الملك بينهم فلا يرد أمره ، وكان أهلا لذلك كرما وحلما وعلما ، ولم تزل الدنيا تنثال عليه . وجعلت العرب منزله فى أرض شنقيط حَرَمًا آمنا ،

---

(١) يرفلن : يتبخترن . بان : شجر يشبه به الحسان فى جمال القوام .

(٢) يطمثها : يَمْسَسْها .

(٣) انظر فى الشيخ سيديا الشنقيطى ص ٢٤٠ والشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣٩١ وما بعدها وفى مواضع متفرقة .

ولم يكن يمضى عليه يوم إلا وعنده آلاف من الناس يطعمهم ويكسوهم ويقضى جميع حوائجهم ومآربهم .. وكان تلاميذه ومريدوه يحاولون أن يقلّل من هذا الكرم الفياض فلا يستمع إليهم إلى أن توفى سنة ١٢٨٤ هـ/١٨٦٨ م . وكان شاعرا بارعًا ، وله من قصيدة :

رفعتُ إلى مولاىَ جُلَّ شَكيَّتى ... وأمَّلتُ نشْلى عنده من بَليَّتى
بُليتُ وهل يُبْلَى مريدٌ بمثل ما ... بُليتُ به من خُبْثِ نَفْسٍ غَوِيَّةِ
حجابٌ عَماها عن شهودِ صِفاتها ... بهِ حُجِبَتْ عن مشهدِ الأحَدِيَّةِ
لذلك أفْنتْ جِدَّهـا واجتهادها ... ومَرْغَبَها فى الفانيـات الدَّنِيَّـةَ
صحتْ من سحاب الواردات سماؤها ... بعصفِ ريـاح الهاجساتِ الرَّدِيَّةِ
مددتُ إليك الكفَّ يا خـيرَ واهبٍ ... فلا تحرِمِ الخـيرَ المُفـاضَ يُدَيَّتى[1]

وهو يقول إنه رفع شكواه إلى ربه ضارعا إليه أن ينقذه من بليته ، وهل يُبْلَى مريد محب ربه بمثل مابُلِى به من نفس خبيثة ممعنة فى الغواية إمعانًا حجبها عن مشهد الصوفى لأحديته واتحاده بربه ، ويقول إنها جعلت كل همها واجتهادها فى المتاع الفانى ، مما جعل الواردات الربانية تنحسر عن سمائها بهبوب رياح الخواطر الرديئة . ويضرع إلى ربه مادًّا كفَّيه أن لا يحرم يده من خيره الذى يفيضه على عباده ، ويريد الخير الصوفى من النسك له والاتحاد به والفناء فيه . وله دعاء طويل يستهلُّه بقوله :

يا واسعَ الرَّحَمـات يا فتَّاحُ ... يا مَنْ دُعـاه لبابِه مفتـاحُ
يا بَرُّ يا رزَّاقُ رزقُك شاملٌ ... تُغْذَى بـهِ الأرواح والأشبـاحُ
يا فارجَ الهـمِّ المُربِّ وكاشفا ... كَرْب العبيد إذا دعوك وباحوا[2]
فَرِّجْ كروبَ المسلمين جميعِهم ... وأغِثْ بمـا لهمُ بـه إصـلاحُ
أنت المغيثُ وأنت ذو الرُّحْمَى التى ... بنزولهـا شِدَدُ الـوَرى تنزاحُ[3]
تلك الأراضى وَهْدُهـا ونِجادُهـا ... جُرُزٌ بهـا تتخافقُ الأرواحُ[4]

وهو يدعو ربه قائلا : اشملنى برحمتك الواسعة وافتح لى باب الرزق المغلق ، يا من يستجيب للداعين ،يا محسن ، يا رزاق رزقا شاملا للناس وغير الناس ، يا فارج الهم المقيم وكاشفا غم العبيد فرِّج كروب المسلمين وأغثهم بما يصلحهم ، فأنت المغيث الرحيم الذى برحمته تزول كل الشدائد . ويصور الشدائد فى شنقيط ومراعى تيرس وريفها ، فالأراضى منخفضاتها ومرتفعاتها أجدبت ، ولم يعد بها إلا رياح تهب يمينا وشمالا ويقول إن البهائم لا تجد ما ترعاه

(١) يدبُّتى : تصغير يد .
(٢) المرب : المقيم .
(٣) شدد جمع شدة ..
(٤) جرز : مجدبة . تتخافق : تضطرب . الأرواح : الرياح .

وأصبحت عِجافا مهزولات ،ويضرع إلى ربه طويلا أن يرسل على البلاد سحبا تتدفق بالأمطار ، فينبت الزرع ويمتلىء الضرع ، وتنشأ الرياض وتجود الأشجار ويَرْوَى الظمآن ويشبع الجائع ويعم رخاء لا يشوبه بؤس ولا شقاء .

## ٣

### شعراء المدائح النبوية

بدأت هذه المدائح فى حياة الرسول ﷺ على لسان حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن زهير وأضرابهم ، وأخذت تتكاثر فى العصر العباسى على لسان أهل السنة مصورين فى الرسول المثل الأعلى للمسلم فى تقواه ونسكه ودعوته لرسالته وجهاده العظيم فى نشرها ، وبالمثل على ألسنة الشيعة مرددين أن نوره المحمدى سرى فى أئمتهم . وأخذ المتصوفة – منذ الحلاّج – يشيعون فكرة الحقيقة المحمدية وأن الرسول ﷺ مبدأ الوجود الروحى للحياة البشرية ، بل مبدأ النور والوجود فى الكون . ويشيد المادحون له دائما بمعجزاته المبثوثة فى كتب السيرة النبوية وبمعجزته الكبرى الخالدة : القرآن الكريم . وعادة ينهون مدائحهم بالتماس الشفاعة منه يوم القيامة وأن يغفر الله لهم ذنوبهم . ومنذ نشط الشعر فى موريتانيا نرى شعراءها –مثل شعراء الأقطار الإسلامية– يتغنون بمديح الرسول ﷺ مصورين سيرته ومعددين مناقبه ومعجزاته الباهرة وجهاده الرائع فى نشر رسالته وجهاد أصحابه ، مع التوسل إليه فى غفران ذنوبهم والشفاعة يوم العَرْض . وتكثر هذه المدائح فى الشعر الموريتانى ، ونختار بعض أمثلة مع الترجمة لبعض من برعوا فى نظمها ، فمن ذلك قول محمد بن عبد الرحمن الحسنى –من شعراء القرن الثانى عشر الهجرىّ – فى مديح الرسول ﷺ [1] :

فإن لم تكنْ لى خَيْمَةٌ حـول رَمْسِهِ ... فهذا هـواهُ فى فـؤادىَ خيَّمـا[2]
ويا ليتَ خَدِّى كان مَوْطِىءَ نَعْلِهِ ... وصدرى ضَرِيحًـا جامعا منه أعْظُما
وما مثلُـه البحـرُ الخِضَمُّ تكرُّمًا ... ولا كَنايـاهُ البـروقُ تبسُّما[3]
ولو قِسْتَهُ ضَوْءًا وجودا وجرأةً ... بشمسٍ وضرْغامٍ ووَبْلٍ متى هَمَى[4]
لكنتَ كمن قد شبَّه الشمسَ بالسُّهَا ... وبالطَّـلِّ وكَّافـًا وبالقِـرِّ ضَيْغما[5]

وهو يقول إن لم تكن لى خيمة أعيش فيها حول قبره فإن هواه خيَّم فى فؤادى واستقر به ، ويتمنى لو عاش فى زمنه وكان خده موطىء نعله وصدره قبرا لأعظمه العطرة ، ويقول

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ١٤٣ .
(٢) رمسه : قبره .
(٣) الخضم : الواسع الزاخر .
(٤) ضرغام : أسد . وبل : مطر غزير . همى : سال .
(٥) السها : كوكب صغير . طل : مطر قليل . وكاف : مطر منهمر . ضيغم : أسد .

إن البحر الواسع الزاخر لا يماثله كرما ولا البروق المضيئة تماثل ثناياه تبسما وإشراقا . ولو قاسه أحد بالشمس لكان كمن يقيس الشمس بنجم السُّها الضئيل ، ولو قاسه بالويل والمطر الغزير لكان كمن يقيس الطَّلَّ بالغيث المنهمر ، ولو قاسه أيضا بأسد لكان كمن يقيس الهر بأسد شديد الضراوة . ولغالى بن المختارفال البوصادى – من شعراء النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجرى – مدحتان رائعتان فى الرسول يقول فى إحداهما[1] :

محمدٌ سيِّدُ الكَوْنين سيِّدُ مَنْ ... يَمْشى على الأرض من حافٍ ومُنْتَعِلِ[2]
محمدٌ سيدُ الأقطارِ سيِّدُ مَنْ ... حاز العُلا من ذوى الأمصارِ والنُّقَلِ[3]
مَنْ للعُصاةِ شفيعٌ للمُضَام حِمًى ... للمُسْنتين ربيعٌ كالحَيا الهَطِلِ[4]
للمهتدين سَنًا للمُرملين غِنًى ... عَلاؤه فوق كلِّ المرسلين عَلِ[5]
بَدْرٌ حُلاه به الآفاقُ حاليةٌ ... للمشتكين مُنًى للمرسلين وَلِى[6]

وغالى يقول محمد سيد الدنيا والآخرة وسيد كل من يمشى على الأرض حافيا ومنتعلا وسيد الأقطار وسيد كل من حاز شرفا من البدو والحضر ، شفيع العصاة حمى لهم ، وللمجْدين ربيع كالغيث المنهمر ، وهو نور مشرق للمهتدين ، وغنى للفقراء المُعْوزين ، ومنى للمشتكين السائلين وسيد الأنبياء والمرسلين ، إنه بدرٌ ازدانت بأضوائه الآفاق ، وقد علا علاؤه وشرفه فوق كل المرسلين . وللأحول الحسنى مدائح متعددة للرسول ﷺ ، ومن قوله فى إحداها[7] :

قدوةُ الأنبياءِ قطبُ رَحَى الكَوْ ... نِ وإنسانُ مُقْلةِ الإيجادِ
وسراجُ الوَرَى المُنيرُ المُحَيَّا ... وبشير الوَرَى النذيرُ العبادِ
وكتابٌ عليه أنزله اللـ ... ـهُ شفاءٌ ورحمةٌ للعبادِ
بشَّرَتْ آيُهُ وأنْذرتِ النَّا ... سَ بوعدِ الثواب والإيعادِ
وفنونٌ من البلاغة تُعْيى ... بلغاءَ الجوابِ فى كل نادِ

وهو يقول إن الرسول القدوة المثلى للأنبياء ومحور حركة الكون وإنسانُ عَيْن الإيجاد والخلق . وواضح أن هذا البيت الأول يستمد من فكرة الحقيقة المحمدية وأنه مبدأ الوجود وروحه ، ويقول إنه سراج البشرية ذو الوجه المنير ، وقد أرسله الله بشيرا ونذيرا للناس ، وأنزل عليه القرآن شفاء ورحمة لهم يبشرهم بثوابه وينذرهم بإيعاده أو عقابه ، وقد حوى من فنون البلاغة ما أعجز البلغاء فى كل ناد وجماعة عن معارضته والإتيان بمثله . ويقول محمدى العلوى مولدية نبوية بديعة ، منها قوله[8] :

---

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ١٥٠ وما بعدها .
(٢) الكونين : الدنيا والآخرة .
(٣) ذوو النقل : البدو الرحل .
(٤) المسنتين : المجدبين . الحيا : الغيث .
(٥) سنا : ضوء . للمرملين : للفقراء .
(٦) حالية : مزدانة . ولى : سيد .
(٧) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ١٦٥ .
(٨) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ١٧١ .

أهلا بشهر المَـــوْلدِ شهر العُلا والسُّؤْدَدُ شهـر النبىِّ أحْمَدِ
شهر ربيعِ الأوَّلِ

أهلا بِشَهْر الهـادِى لمنهـج الرَّشـــادِ وقائـدِ وحـــادِ
إلى الطريقِ الأمْثَلِ

أهلا بليل اثْنَىْ عَشرْ فيـه ويومـهِ الأغرّ وطيبِ ذلك السَّحَرْ
ونـورِ أفْقهِ الجَلِى

والمدحة بديعة ، وهو يرحب بشهر المولد للنبى: شهر العلا والفخر والمجد ، شهر الحبيب المصطفى شهر مولده : ربيع الأول ، شهر الهادى إلى الرشاد والقائد والحادى إلى الطريق المستقيم . ويرحب بليلة ميلاد الرسول ليلة اليوم الأغر الشريف الثانى عشر ، وبما نشر سَحَرُها من طيب عطر ونور منتشر فى أفقه بل فى كل الآفاق . ويقول محمد بن الشيخ سيدىّ الأَبَيْرِى خليفة أبيه فى الطريقة الصوفية والمترجم له بين شعراء الفخر مدحة مولدية بارعة ، منها قوله[1] :

أهلا بميلاد مولـودٍ بـــه كملتْ بُشْرَى البشائر للبـــادى وللْقَرَوى
أكرمْ بهـا ليلةً غَرَّاءَ ضاحيةً فيها يتيمـةُ سِمْط اللـؤلؤ اللُّأَوِى[2]
أكرمْ بها ليلةً غراء مظهرةً سِرَّ الوجود الذى فيه الوجودُ طُوِى
لولاه ما أُنسزل الذكرُ الحكيـمُ ولا الدِّينُ القويمُ ولا ما فى الصِّحاح رُوِى
ولا أقيمتْ من الإســـلام قاعـدةٌ ولا بدا فَضْـلُ سُنِّىٍّ على حَشَـوِى
ولا أبـــان بيـــانىٌّ معانِيَـــه ولا نَحَا النَّحْوَ نحـــوىٌّ ولا لُغَـــوى
لـولاه لم يَغْلِبِ الـرومَ الغِلابَ ولا ملـوكَ ساسـانَ تَيْمِىٌّ ولا عَـدَوِى

وهو يهلل لميلاد الرسول الذى به تمت بشرى البشائر لكل بدوى وحضرى ، ويقول ما أكرمها من ليلة شريفة مضيئة بيتيمةٍ عقد اللؤلؤ الفريد المنتمى إلى لُؤَى بن غالب جدّ الرسول ، وما أشرفها من ليلة أظهرتْ سر الوجود ومبدأه الذى استمد منه الكون وجوده ، إنه العلة الأولى والسر الأول فى خلق الوجود ونشوء الكون ، وللرسول بذلك وجودان : وجود معنوى هو لب الوجود الكونى ووجود حسىّ مادىٌّ حين ولد ثم بعث للناس هاديا وسراجا منيرا . ويقول : لولاه ما أُنْزل القرآن الكريم ولا الدين الحنيف أو شريعته القويمة ولا رُويت أحاديثه فى كتب الصحاح الستة : صحيح البخارى ومسلم وأبى داود والترمذى والنسائى وابن ماجة ، ولولاه ما أقيمت قاعدة للإسلام ولا عرف الناس فضل السُّنّى على

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ١٨٩ .
(٢) ضاحية : مضيئة . اللأوى : نسبة إلى لؤى بن غالب جده صلى الله عليه وسلم .

الحشوى من أهل التجسيم والعقيدة الزائفة . ولولا بلاغة كتابه التى اهتدى بها البلغاء ما كان بليغ ، ولولا العلوم الكثيرة التى نشأت حوله ما كان نحوى ولا لغوى ، ولولا رسالته العظمى ما غلب الرومَ الأقوياء وملوكَ الفرس الساسانيين أبو بكر الصديق التيمى وعمر بن الخطاب العدوى . ويقول الشيخ محمد الشمشوى المتوفى سنة ١٢٩٢ هـ/١٨٧٦ م صادرا عن فكرة الحقيقة المحمدية[١] :

ألا قد أقرَّ الكونُ أنَّ محمدا ... لكلِّ فروعِ الفضل أصلٌ مقدَّمُ
فمنه استفاد الحسنَ كلُّ يتيمةٍ ... من الـــدُّرِّ يُكْسَاها غزالٌ منعَّم
ومنه استفاد الضوءَ وجهُ غزالةٍ ... جَنَى الضوءَ منها زِبْرِقانٌ ومِرْزَمُ[٢]
ومنــه استفاد الأقْحُــوانُ نضــارةً ... وحُسْنَ جَمــال الثَّغْــر إذ يتَبَسَّمُ

وهو يقول إن الكون أقرَّ بأن الرسول ﷺ أصل كل ما فى الكون من فروع الفضل والجمال . فمنه استفادت الحسنَ كلُّ درة يتيمة فى عقد على لبَّة سيدة جميلة منعمة ، ومنه استفادت الشمس ضوءها ، ومنه أخذ البدر ضوءه وكذلك نجوم المطر . ومن الرسول استفاد الأقحوان نضارته واستفاد كل ثغر لسيدة من جماله حين يبتسم . ونكتفى بما قدمنا من أمثلة المديح النبوى الموريتانى ، ونقف قليلا عند نفر من مجيديه .

## مولود[٣] بن أحمد الجواد اليعقوبى

يقول الشنقيطى فيه « هو العلامة النحرير ، واللغوى الشهير ، أحد أعلام تلك البلاد ، وإليه المرجع وعلى أقواله الاعتماد .. من أكابر تلاميذ العلامة المختار بن بون » المترجم له بين شعراء الفخر ، ويقول الشنقيطى أيضا : « كان مدَّاحا لرسول الله ﷺ ، ومن ذلك قصيدته المعروفة بالمرجانية ، وفيها يقول :

أزْكَى صلاةٍ وتسليمٍ على قمرٍ ... بدرٍ بــهِ قد أنارَ اللَّهُ أكوانَهْ
يارَبِّ صَلِّ عليــه دائمًا أبدًا ... ما حلَّ أعراضُ هذا الكونِ أعيانَه[٤]
دينٌ حنيفٌ مَحَا الماحى به وعفا ... آثــارَ مَنْ كان فى خُسْرٍ وأديانَــه
أنت الذى أزلفَ الله الجِنــانَ لمن ... والَى وأبــرز للعاديــه نيرانَه[٥]
لو كان ذا الكونُ إنسانًا لكنت لــه ... طَرْفًا ولو كانَ طرْفًا كنت إنْسَانَه[٦]
أنت السراجُ المنــير اللَّذْ أنــارَ به ... نــورُ السمواتِ والأرْضين أكوانه

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ١٩٦ .
(٢) الغزالة : الشمس . الزبرقان : البدر . المرزم : نجم من نجوم المطر .
(٣) انظر فى ترجمة مولود وأشعاره الشنقيطى ص ١٩٠ وما بعدها .
(٤) لأعيان : المحسوسات . أعراض جمع عرض : ما قام بغيره من الصفات كالطول والبياض .
(٥) أزلف : قرَّب وقدم .
(٦) الطرف : العين . إنسانها : سوادها المبصر .

وهو يصلى ويسلم على الرسول بدر الوجود الذى أثار الله به أرجاء كونه ، ويدعو الله أن يصلى عليه ما دام الكون قائما وما دامت الأعراض تتعلق بموجوداته . وينوه بالإسلام وأنه دين حنيف محا به الماحى ( من أسماء الرسول ) آثار الخسران والديانات الباطلة ، وقد قرب الله لمن والاه الجنان وأذاق أعداءه العاصين نيرانه ، ولو كان الكون إنسانا لكان عينه المبصرة ، أو لو كان عينا لكان إنسانها الذى ترى به الدنيا . ويلخص فى البيت الأخير فكرة الحقيقة المحمدية وأنه مبدأ الوجود ونوره وكل نور فى السموات والأرض مستمد من سراجه ، فهو منبع كل نور . ويقول :

ما سُدَّ بابُ كريمٍ دون قارعهِ ... فاقْرَعْ تجدْ بابَ مُولى الأنْعُمِ انفرجا
وارغبْ إلى ربِّك الأعلى ليجعلنا ... مِّمَّنْ على النهج نَهْجِ المصطفى دَرَجا[1]
نهجِ الذى أنزل الله الكتاب هُدًى ... لنا عليه ولم يجعل له عِوَجَا[2]
منه استفادَ النَّبيّون النبوَّة إذ ... مما لـه ما لهم منها قد اختلجا[3]
ألا طَرِبتُ ألا إنى طربتُ إلى ... مَنْ حبُّه مع لحمى والدَّم امتزجا
مَنْ للنبيين مَنْ للرُّسْل أيْن لهم ... مِنْ قابِ قوسين معراجٌ كما عرجا[4]

وهو يقول اقرعْ باب الربِّ الكريم المنعم تجده قد انفتح ، وادعه أن يجعلنا ممن سار على نهج المصطفى وكتابه الذى أنزله الله عليه ولم يجعل له عوجا ولا التواء ، ويقول متمثلا فكرة الحقيقة المحمدية إنه مبدأ الأنبياء ، منه استفادوا نبوتهم التى خالجتهم فى نفوسهم . ويذكر أن حب الرسول امتزج بلحمه ودمه ، ويقول إنه ليس للأنبياء والرسل معراجه الذى خصَّه الله به . ويشير إلى ما جاء فى سورة النجم : ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ .

### محمد[5] بن محمد العلوى

يقول الشنقيطى عنه : « برع فى عنفوانه فى العلوم وصرف همته إلى نظم الشعر ، وبلغ صيته فى قطره مبلغا لم يبلغه أحد ممن عاصره » . ولما بلغ نحو الثلاثين من عمره عزم على الحج ، ومر بمراكش ومدح سلطانها عبد الرحمن العلوى ( ١٨٣٤ - ١٨٥٩ م ) واحتفى به ، ثم توجه إلى الحرمين الشريفين فبدأ بالزيارة ثم قضى حجه ، وفى طريقه من مكة إلى جدة توفى ، يقول الشنقيطى : كان حيا بعد سنة ١٢٥٠ هـ/١٨٣٥ م ويقول الدكتور محمد المختار

(١) درج : مشى وسار .
(٢) عوجا : التواء وانحرافا واختلافا .
(٣) اختلج فى النفس : اضطربت به ، ومنه الخوالج .
(٤) قاب : قدر . عرج : صعد .
(٥) انظر فى ترجمة محمد بن محمد العلوى الشنقيطى ص ٤٧ والشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٥١ وفى مواضع متعددة .

إنه توفى سنة ١٢٧٢ هـ/١٨٥٦ م ويذكر الشنقيطى أن ديوانه مجلد ضخم ، وكان مدَّاحا بارعا للرسول ﷺ ، وفى إحدى مدائحه يقول :

وجَّهتُ وَجْهى إلى خيرِ الوَرَى وأرى ... لنفسىَ الفـــوزَ بالمطلـــوب والظَّفَرا
وجهتُ وجهى إلى مُغْنى الفقير ألا ... إنى لمعروفــه مــن أفقــرِ الفُقَرا
وجَّهت وَجْهى لذى الخُلْقِ العظيمِ وذىالـ ... ـمجد الصميمِ عديمِ الشَّكل والنُّظَرا
وجهت وجهى لمحمود المقام ومقـ ... ـصود الأنام إذا الخطبُ الجليلُ عَرَا
من آيهِ وكفى القـــرآنُ معجـــزةً ... ما كان من خارقٍ فى بدئه ظهَرا
يكفيك أن إلـــه العَـرْشِ صـــوَّره ... كما يشاء ومنـــه صـــوَّر الصُّـــوَرا

ويبدو أنه نظم القصيدة حين عزم على الحج والزيارة أو لعله كتبها فى طريقه إلى الزيارة ، وهو يقول : وجهت وجهى إلى خير البشرية ، وفى ذلك فوزى وظفرى بكل ما أطلب إذ وجهت وجهى إلى مغنى الفقير روحيا ، وإنى لمن أفقر الفقراء إلى معروفه . إنه صاحب الخلق الرفيع والمجد المؤثل عديم النظير ، صاحب المقام المحمود والمقصود فى نوازل الخطوب ، ومن معجزاته الباهرة القرآن ، المعجزة الخارقة . وصور الشاعر فى البيت الأخير صورة وجوده المادى الحقيقى التى صوره الله فيها صورة رفيعة ، وصورة وجوده المعنوى الذى صوَّر الله منه صور الموجودات ، وهو وجود يسبق خلق الكون وموجوداته . ويقوله فى مدحة مولدية :

إنسانُ عَيْن الكونِ غُرَّةُ وجهِهِ ... حاوى التفرُّد بالمقـــام الأرفعِ
بابُ الإلـــه ومصطفاه لسرِّهِ ... وسراجُ حجَّته الذى لم يُقْشَعِ[1]
من خصَّه بِحُلَى الكمال إلهُه ... والكونُ واقعُ أمـرِهِ لـم يوقعِ
يا مولدَ الهادى لشهرِك نفحةٌ ... أرِجَ الزمانُ بنَشْرها المتضوِّع[2]
أكرمْ بمولدِ ذى الخِتـامِ بيَوْمِهِ ... وبشهرِهِ وبعامـــهِ والموضـــعِ

وهو يقول إن محمدا ﷺ إنسانُ عين الكون وغرَّة جبينه المشرقة صاحب المقام الأرفع الفريد عند ربه ، باب رضاه وغفرانه ومصطفاه لسره ورسالته وسراج شريعته الذى لم تنحسر أضواؤه أبدًا ، وقد خصه بالكمال الأسمى قبل حدوث الكون وخلقه . والشاعر بذلك يشير إلى حقيقته المحمدية الأزلية التى خُلقت قبل خلق الكون ووجوده . ويقول إن لشهر مولده نفحة روحية ، تعطر الزمان بشذاها الفائح ، فما أكرم مولد خاتم الرسل ، وما أعظم شهره وعامه وموضع مولده .

---

(١) يقشع هنا : تنحسر أضواؤه .
(٢) أرج الزمان : تعطَّر . نشرها : شذاها الطيب . المتضوع : الشديد الرائحة .

## محمد[1] بن حنبل

يقول الشنقيطى فى ترجمته : « كان محمد هذا من العلماء الأعلام ، واشتهر فى اللغة . وكان نحويا وله اليد الطولى فى البيان . وكان حريصا على طلب العلم ، يقال إنه مكث سبع سنوات منقطعا لطلب اللغة » وأنشد الشنقيطى له قصيدة فى مديح الشيخ سيدًّيا حضَّ فيها على طلب العلم ومدارسته حضًّا شديدا ، وله قصيدة يزرى فيها بأهل الجهل ومقصورة مدح بها الشيخ سيدًّيا عارض بها مقصورة أبى صفوان الأسدى وما تصور من حيوانات الصحراء وطيرها وما تحمل من ألفاظ بدوية آبدة مما يدل على ثقافته الأدبية واللغوية الواسعة ، وأنشد له الدكتور محمد المختار نبوية طويلة فى نحو مائةٍ وثمانين بيتا ، وهى نبوية رائعة ، توفى سنة ١٣٠٢ هـ/١٨٨٥ م ومن قوله فيها مستمدا من فكرة الحقيقة المحمدية الأزلية :

طه الصِّراطُ المستقيمُ محمدٌ ... تاجُ الخلائق سيدُ الأبرارِ
أصلُ الوجودِ وحَلْيُهُ وعَتادُه ... ومُفيضُ بحر الجود والأنوارِ
نورُ السراجِ وكلُّ نَجمٍ طالعٍ ... من نورِهِ والشمسِ والأقمار
والحُورِ والوُلدانِ فى غُرفاتها ... والدرِّ والياقوتِ والأزهارِ
والعَرْشِ والكرسىِّ والألواح والأ ... قلامِ والأفهام والأبصارِ
والمسكُ فى فاراتِهِ والندّ فى ... أحقاقه والروض ذى الأنوارِ[2]

وهو يقول إن طه هو محمد الصراط المستقيم الذى لا ينحرف أبدا تاج الخلائق سيد النسَّاك . ويأخذ ابن حنبل فى ذكر حقيقته الأزلية ، فهو أصل الوجود وزينته وعُدّته ، ومفيض غيث كرمه وأضواء أنواره إنه أصل كل نور فى السراج وفى النجوم والكواكب والشمس والأقمار ، وأصل كل جمال فى حور الجنان وغلمانها وفى اللؤلؤ والياقوت والأزهار ، وأصل كل وجود فى العالم العلوى من عرشٍ وكرسىٍّ وألواح وأقلام وفى العالم السفلى من أفهام وأبصار وهو طيب المسك فى أوعيته وطيب النَّدّ فى حِقاقه وشَذَا الأزهار فى روضها المونق . ويستمر ابن حنبل فى نفس الفكرة قائلا :

وبِهِ نَجَا فى الفُلْك نوحُ وأهلُه ... ونَجَا الخليلُ من التهاب النَّارِ
وأقام آدمُ فى الجِنان وزوجُه ... وبنوهما فى البَدْو والأمصارِ
وبِيُمنِهِ قَبِلَ الإلهُ متابَهُ ... من بعد مَكْر الخادع الغرَّارِ[3]

---

(١) انظر فى ترجمة ابن حنبل الحسنى وأشعاره الشنقيطى ص ٣١١ والشعر والشعراء فى موريتانيا ص ١٧٨ وفى مواضع مختلفة .

(٢) فارات المسك : أوعيته .

(٣) الخادع الغرار : إبليس .

ونجا الذبيحُ بذبْحه من بعد ما أنْحَى عليه بصارمٍ بتّارِ
وبه سَرَى موسى الكليمُ بقومه وبه انفلاقُ الخِضْرِمِ الزخّار[1]

وهو يردُّ الخلاص من كل ما نزل بالرسل إليه وكذلك كلَّ ما جرى على أيديهم من معجزات فهو سرُّ الوجود وكل ما فيه وكل ما حدث للأنبياء والرسل مستمد منه ، فبه نجا نوح ومن آمن به فى الفلك من الغرق ، ونجا إبراهيم الخليل من النار واستحالت بردا عليه وسلاما ، وبه كُرِّم آدم وزوجه بمقامهما فى الجنة وأغواه إبليس فقبل الله بيمنه توبته وأكرم ذريته فى البدو والحضر ، ونجا إسماعيل من ذبح أبيه إبراهيم ، وبيمنه سار موسى الكليم بقومه ليلا ، وانفلق له ولهم البحر الواسع الزاخر فكان كل فرق كالجبل العظيم وغرق فرعون ومن معه . وعلى هذا النحو يطيل ابن حنبل فى بيان الحقيقة المحمدية الأزلية ، فهو أصل كل موجود فى الكون وأصل كل نعمة أسبغت على الرسل بيمنه وفضله . ويتحدث عن القرآن معجزة الرسول الكبرى قائلا :

وأتَى بكلِّ مهيمنٍ ما إنْ تَفِى لُسُنُ المناطق منه بالمعشارِ[2]
آياتُ عيسى والكليمِ بِجَنْبِهِ كالطَّلِّ جَنْبَ مُزَمْزِمٍ هَمَّارِ[3]
سُوَرٌ كأشباه الرياضِ تضوَّعتْ بِشَذا العَبيرِ وجَوْنَةِ العطارِ[4]
وتناسقتْ ألفاظُها وتناسبتْ آياتُها كتناسب التِّقصارِ[5]
وطِوالُها كِقصارها وقصارُها كالدرِّ يَبْرُزُ فى نحورِ جَوارِ

فالرسول ﷺ قد جاء بمعجز من القرآن الكريم ، لا يستطيع البلغاء الفصحاء الإتيان بسورة من مثله ، ومعجزات عيسى من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ومعجزات موسى كليم الله من انفلاق البحر كل هذه المعجزات لموسى وعيسى بجانب معجزة القرآن الخارقة التى ليس لها سابقة ولا لاحقة كالمطر القليل بجانب السحاب المرعد الذى تنهمر أمطاره ، سور كريمة مثل الرياض تفوح بشذى الطيب ووعائه لدى العطار ، وألفاظها متناسقة تناسق اللآلىء فى القلادة البديعة ، وطوالها مثل قصارها تشبه الدرر فى نحور الجوارى الفاتنات .

## ٤

### الشعراء والشعر التعليمى

عرضنا فى كتاب العصر العباسى الأول كيف أن رقى الحياة العقلية حينذاك أدَّى إلى استحداث فن الشعر التعليمى ، وكان من السابقين إليه أبان بن عبد الحميد بترجمة كتاب كليلة ودمنة عن الفارسية إلى العربية فى نحو ١٤ ألف بيت من الشعر المزدوج المنظوم من وزن الرجز وفيه

(١) الخضرم الزخار : البحر الواسع الطاغى موجه .
(٢) مهيمن : قاهر معجز . لسن المناطق : ألسنة البلغاء .
(٣) الطل : المطر القليل . مزمزم : سحاب ملىء بالرعد . همار : مدرار كثير المطر .
(٤) تضوعت : فاحت . شذا : عطر . العبير : الطيب . جونة : وعاء .
(٥) التقصار : القلادة .

تختلف القافية من بيت إلى بيت ، مع اتحاد الشطرين المتقابلين فيها بكل بيت ، ونظَم مزدوجات أخرى فى التاريخ والفقه . ومن حينئذ شاع هذا الفن الجديد فى العراق وإيران والبيئات الإسلامية المختلفة ، وتكاثرت منظوماته فى الأندلس والمغرب ، وتأخذ فى الظهور بموريتانيا فى القرن الثانى عشر الهجرى وسرعان ما تتكاثر كثرة مفرطة فى القرن الثالث عشر ، ومن أمثلتها فى أواخر القرن الثانى عشر نظم المُجَيْدرى لما ورد عن العرب من كلمات على وزن فاعول ولامهاسين مثل طاووس وناقوس[1] . ونلتقى بالمختار بن بون المتوفى حول سنة ١٢٢٠ هـ/١٨٠٦ م وله فى النحو نظم سماه الاحمرار ذكر فيه من تسهيل ابن مالك ما لم يذكره فى الألفية ، ومزجه بها مزجا جيدا يدل على مهارة تامة[2] . وكان يعاصره عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوى المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ/١٨١٤ م وقد نظم كتاب جمع الجوامع فى أصول المذهب المالكى للسبكى وسمى نظمه مراقى السعود ، وألف شرحا لهذا النظم باسم نشر البنود يقول الشنقيطى : « لم يأت الزمان بمثله ، ولا جاد فيما مضى بشكله » وألف فى علم البيان نظمه « نَوْر الأقاح » ووضع له شرحا سماه « فيض الفتاح » جمع من فنون البلاغة الثلاثة : المعانى والبيان والبديع الدرّ الثمين ، ألغى فيه الغث وأخذ السمين ، وله فى مصطلح الحديث نظم سماه « طلعة الأنوار » وضع عليه شرحا[3] ولابنه محمد منظومة فى الأفعال جمع فيها ما فى التسهيل لابن مالك وما فى لاميته وما فى شرح بحرق اليمانى للامية ، وشرح المنظومة ، وهو عمل لغوى بارع ، ويقول الشنقيطى معبرا عن إعجابه بهذا العمل : ناهيك به[4] . ولعبد الله بن أحمد الغلاوى معاصر ابن الحاج وأحد أفراد زمنه فى العلم وأعلم من بأرض الحوض منظومات[5] متعددة ، منها منظومته لرسالة ابن أبى زيد القيروانى فى الفقه المالكى ، أنشد الشنقيطى من فاتحتها قوله :

ولم أكن جُذَيْلَ هذا الفنِّ ... وما علىَّ لَوْمَةٌ لأُنَّى[6]
شُغلتُ بالنَّحْو وبالبيانِ ... و ( إنَّ هذان لساحران )

ويذكر الشنقيطى أنه نظم متْنا فى الفقه لعبد الرحمن الأخضرى الجزائرى صاحب متن السلم المشهور فى المنطق ، وبدأ نظمه بقوله :

عبدُ الإلهِ الشنقطىُّ يشترى ... بعقده المنظوم تِبْرَ الأَخْضَرِى

وقال إنه نظم أيضا متن الخزرجية فى العروض ، واستهلَّ نظمه لهذا المتن بقوله :

الحمد لله على تخريجى ... مسائلَ العلوم بالتدريجِ

---

(١) الشنقيطى ص ٢١٥ .
(٢) الشنقيطى ص ٢٨٠ – ٢٨١ .
(٣) الشنقيطى ص ٣٨ – ٣٩ .
(٤) الشنقيطى ص ٨٣ .
(٥) انظر ترجمة الغلاوى عند الشنقيطى ص ٩١ وما بعدها.
(٦) جذيل : خبير .

ويبدو أن منظوماته العلمية كانت سائغة جيدة ، ويقول الشنقيطى إنه همَّ بنظم مختصر خليل فى الفقه ثم صرفه عن ذلك صارف[1] .

وللتجانى بن باب المتوفى حول سنة ١٢٦٠ هـ منظومة فى أزواج النبى ﷺ وأولادهن منه وما لكريماته الطاهرات من بنين وبنات ، وله على هذه المنظومة كما يقول الشنقيطى شرح نفيس . وله أرجوزة نظم فيها ورقات الجوينى إمام الحرمين فى علم الأصول[2] . واشتهر أحمد البدوى المجلسى بمنظومتين[3] : منظومة فى أنساب العرب سماها عمود النسب استهلها بقوله :

حمدًا لمن رفَع صيتَ العربِ وخصَّهم بين الأنام بالنبى

والمنظومة الثانية فى غزوات الرسول ﷺ ، وينوه الشنقيطى بجودة نظمها وأنها تدل على تبحره فى السيرة النبوية ، افتتحها بقوله :

حمدًا لمن أرسل خيرَ مُرْسَلِ لخير أمـــةٍ بخـير الملل
وأفضلُ الصـلاة والسلامِ على لُبـــاب صفوة الأنـــامِ

وأنشد له الشنقيطى قطعتين فى غزوة الخندق وغزوة حنين . وممن أكثروا من الشعر التعليمى فى النحو عبد[4] الودود بن عبد ألّ من نحاة النصف الثانى من القرن الثالث عشر الهجرى وشعرائه ، وله مقطوعة فى مد المقصور استهلها بقوله :

ومدُّ مقصورٍ خلافُه اشْتَهَرْ وفَصَّـــلَ الفَرَّاءُ تفصيلا بَهَرْ

ومضى فى المقطوعة يذكر تفصيله لأحكام مد المقصور ، ويقول الشنقيطى : « له قصيدة غزلية فى المصادر الغريبة ، وما ترك مسألة عويصة فى النحو إلا نظمها أسلس نظم وأتقنه ، وعلى شاكلته المختار بن ألّمًّا ، يقول الشنقيطى : توفى بعد سنة ١٣١٠ هـ/١٨٩٣ م وله أنظام كثيرة فى النحو[5] ، ومثلهما الحسن بن زين تلميذ عبد الودود المتوفى قريبا من ١٣٢٠ هـ/١٩٠٣ م يقول الشنقيطى : له استدراك على لامية الأفعال لابن مالك مزجه بها ولولا أنه كتبه بالحمرة لا لتبس بنظم ابن مالك ، وله أنظام كثيرة مفيدة ، وينشد بعض نظمه فى مسائل نحوية[6] .

---

(١) الشنقيطى ص ٩٢ .
(٢) الشنقيطى ص ٧٠ .
(٣) انظر ترجمته فى الشنقيطى ص ٣٥٠ .
(٤) انظر ترجمته فى الشنقيطى ص ٣٧٤ .
(٥) الشنقيطى ص٢٣٩ .
(٦) الشنقيطى ص ٣٧٧ – ٣٧٨ .